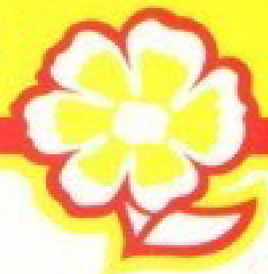


عبير

روايات رومانسية عالمية

جانيت ديلي

زوجة الهندي

مكتبة زهران

١ - ذاهبة الى اخي

قلّبت ليا تالبوت صفحات المجلة بعصبية. ولم تلفت المقالات انتباهها لأنها ركزت نظراتها على الساعة المعلقة في الجدار فوق مكتب الاستعلامات.

اما في الخارج، فكانت كرة الشمس الذهبية تنحدر من كبد السماء، وتلقي اشعتها لوناً اصفر شاحباً على اجنحة الطائرات الرابضة في حظيرة المطار.

توقفت قرقعة الآلة الكاتبة. ثم نهضت المرأة ذات الشعر الأسود عن كرسيها خلف مكتب الاستقبال، واستدارت نحو زميلتها، وهي امرأة متقدمة في السن ذات شعر اشقر مولج حتى اخفى صباغه النحاسي لطخات الشيب فيه.

وتساءلت المرأة ذات الشعر الأسود:

«هل تشربين فنجاناً من القهوة يا جوان؟».

هزت المرأة رأسها من دون ان ترفع عينيها عن دفاتر الحسابات الملقاة امامها على الطاولة. وحملت المرأة السمراء فنجانين بيدها. وسارت نحو الباب الذي يعلو بارتفاع الخصر، ودفعته بوركها فانفتح.

ثم ابتسمت لليا بتهذيب:

«ما رأيك بفنجان آخر يا آنسة تالبوت؟».

ونظرت ليا الى فنجان البلاستيك الفارغ الملقى امامها على المنضدة وهي تتردد. ثم هزت كتفيها قائلة:

«فكرة حسنة».

وداعبت ثغرها المغري بابتسامة خفيفة ساخرة.

نفضت ليا تنورتها البيج الرقيقة. والتقطت الفنجان الفارغ

وسارت متحاشية الاصطدام بامتعتها لبا هي تتبع المرأة السمراء التي طرحت عليها سؤالاً بديهياً ينم عن التعاطف:

«هل اتعبك الانتظار؟».

علقت ليا وهي تتنفس الصعداء:

«حتى اكاد اجن».

استقر ابريق القهوة الزجاجي في موضعه الساخن على الطاولة. وبقربه آلات اوتوماتيكية تبيع وجبات خفيفة من الحلويات والشطائر البارعة.

ولما فرغت المرأة من ملء كوب ليا، استدارت نحو الكوبين الأخرين:

«ألست ذاهبة لزيارة اهلك؟».

اجابت ليا:

«اجل. انني ذاهبة لزيارة اخي لوني».

امسكت ليا الفنجان الساخن بحذر شديد. ثم حدقت الى النوافذ والشمس العارقة على مهل. ودفعت شعرها الكستنائي خلف ظهرها بعصبية.

قالت المرأة:

«ربما كان من الأفضل ان تتصلي به هاتفياً وتبلغيه بهذا التأخير».

هزت ليا رأسها هزة سريعة:

«لا داعي لذلك. فهو لا يعرف انني سأزوره. فلقد قررت ان اجعلها له مفاجأة بمناسبة عيد ميلاده، الذي يصادف غداً».

ثم نظرت الى عقارب الساعة، واضافت:

«آمل ان تكون مفاجأة له، لكن علي الوصول الى هناك اولاً».

وضحكت المرأة وهي تعلق:

«ماذا يفعل شقيقك في اوستن؟ فبامكان المرء ان يزور جميع مدن في نيفادا قبل ان يفكر بزيارة اوستن».

واجابت ليا مبتسمة:

«فعلاً، اشار في رسالته الي ان اوستن ليست مدينة صاخبة، وانه يعيش هناك موقتاً. فهو موظف في شركة تعدين، وعضو في فريق عمل ارسلته الشركة الى اوستن ليجري بعض الاختبارات».

ردت المرأة ابريق القهوة الى موضعه، وهي تسأل:

«وماذا عن سائر افراد اسرتك؟».

ثم حملت المرأة الفنجانين. وبدأت تسير نحو مكتب الاستعلامات وهي تنظر بفضول الى الفتاة الجذابة، التي تمشي بجانبها.

ردت ليا:

«ليس هناك سوى والديّ اللذين يعيشان في الاسكا حيث يعمل والدي في السلاح الجوي».

فقالت المرأة:

«هذا يفسر اعتياد فتاة صغيرة في مثل سنك على الطيران».

لم تعتبر ليا نفسها صغيرة وهي في العمر الثالث والعشرين سنة. ولكن، ربما بدت هذه السن صغيرة بالنسبة الى المرأة التي قاربت الاربعين من عمرها. ولم تحاول ليا ان تفهمها انه ليس من عادتها ان تسافر بالطائرة. فالوقت، الذي يمر بسرعة ملحة، كان العامل المهم في اختيارها لوسيلة النقل هذه.

ونظرت ليا الى الساعة. ثم سألت بعصبية:

«كم سيمر من الوقت قبل ان ننطلق؟».

هزت المرأة كتفها وهي تضع احد الكوبين على الطاولة لتتمكن من فتح الباب:

«لا ادري. ولكني اعتقد انكما ستنطلقان فور وصول السيد سميث».

وازعج جوابها ليا، التي انتظرت ساعتين حتى الآن. وبما ان تأخر السيد سميث لم يزعج سواها، فقد تقبله الجميع وكأنه امر طبيعي. فهو، في اي حال، زبون دائم للشركة.

ثم جلست بثبات على الاريكة المغطاة بقماش الفينيل. وقالت في نفسها ان اسوأ ما يمكن حدوثه هو عدم حضور السيد سميث. لأنها انفقت معظم مدخراتها للحصول على حصتها من رحلة الطيران المستأجرة هذه. ولولا مشاركة السيد سميث، لما كان بامكانها دفع تكلفة الطائرة والطيار.

بدا الحظ حليفها يوم جاءت تستفسر عن اجرة الطيران. ولما اطلعت على كلفة الرحلة، ابدت استعدادها للرجوع عن الفكرة بسبب الأجر الباهظ. غير ان سؤالاً عن موعد سفرها، ادى الى اكتشاف رحلة طيران في يوم الجمعة نفسه وبالاتفاق عليه.

وانتظرت ليا على احر من الجمر حتى تأكدت من موافقة السيد سميث على مشاركتها اجرة السفر. ثم افرحت بتنهيدة ان انتظارها لم ينته بعد.

وانفتح باب يصل قاعة الانتظار بحجرة الاستقبال. واطل منه رأس رجل كسا الشيب مفرقه وتجعدت جبهته. وقال:

«ماري، هل سمعت اي شيء من رايلي بعد اتصاله الذي قال فيه انه سيتأخر؟».

اجابت المرأة، وقد رفعت يديها وفتحت راحتيها:

«آسفة يا غرادي. فإني لم ابلغ شيئاً».

ثم وقع وثيقة الرحلة متسائلاً:

«اين هو المسافر الآخر؟».

ردت موظفة الاستعلامات، وهي تشير الى ليا الجالسة على الاريكة:

«ها هي».

تحول نظره الى ليا. وسرعان ما غاب العبوس عن محياه، وعلت وجهه ابتسامة عريضة:

«هل انت الآنسة تالبوت؟».

وازدادت ابتسامته اشراقاً عندما هزت ليا رأسها بالايجاب.

«يا لها من مفاجأة سارة. الحقيقة اني خشيت ان التقي بعجوز شمطاء ترهب الطيران وتخاف منه حتى الموت».

ومد يده ليصافحها قائلاً:

«اسمي غرادي طومسون، انا طيارك».

اجابت ليا وهو يضغط على يدها:

«كيف حالك يا سيد طومسون؟».

والتمعت عينا الطيار اصراراً وهو يقول:

«نادني غرادي».

بدا مربوع القامة، مكتنز الجسم، تدل كرشه بروز عند جلوسه على الاريكة بجانبها. ورغم انه قارب الخمسين من عمره، كان بقامة والدها، الا انه لم يمتنع عن مغازلتها. ومع ذلك لم تشعر ليا بكراهية او اشمئزاز من تبسطه ومرحه:

فابتسمت له:

«حسناً يا غرادي».

وانعكست اشعة الشمس الذهبية المنسابة عبر النوافذ على شعرها الكستنائي.

وتأمل الخطوط الذهبية برهة. ثم حدق الى شكلها الكلاسيكي، الذي برزت ملامحه حين نظرت اليه. ولم يفته اي من تكاوينها: ثنية حاجبيها المعقود، والاشراقة الرائعة في عينيها البندقيتين، ونضارة بشرتها. لقد بدت جذابة عموماً.

ثم مال الطيار برأسه قائلاً:

«اذا كنت تنادينني غرادي، فلا يمكنني ان اناديك الآنسة تالبوت».

فأجابت على سؤاله الضمني:

«اسمي ليا».

«قولي لي يا ليا. هل انت صديقة رايلي؟».

فعقدت جبينها لحظة لتتأكد من صحة افتراضها:

«ورايلي هو السيد سميث؟».

قهقه غرانتي بينه وبين نفسه:

«واضح انك لا تعرفينه. ولكن، اذا لم تكوني احدى صديقات رايلي، فما الذي يقودك الى وسط محافل نيقانا؟».

علقت ليا ساخرة:

«ان دعوة لزيارة اختي شريطة ان يحضر صديقك العزيز السيد سميث».

«ليس رايلي ملكاً لأحد».

والارت نبرة صوته الجافة فضول ليا، التي حاولت استجداء معلومات اضافية عن رفيقها الغامض الذي تكتنفه الاسرار:

«يبدو انك تعرفه جيداً».

تنفس الطيار طويلاً، ثم اتكأ على مسند الاريكة الخلفي:

«القصة، في رأيي، على النقيض من ذلك. فلا اشك اذا كان هناك احد يعرف رايلي حق المعرفة. فهو عالم قائم بذاته، ورجل فريد بين بني جنسه، وذئب منفرد بنفسه. ولعل اسمه الحقيقي من جهة احد والديه يفسر ذلك».

وهمست ليا:

«آه. الآن افهم سبب زيارته لاوستن».

واتى رد الطيار:

«انها اسباب تتعلق بالعمل. فلرايلي ارتباطات مع بعض شركات التعدين في اوستن وتورونتو، وغالباً ما اطير به الى احدى هاتين المدينتين».

وفكرت ليا بسرعة اذا كان رايلي سميث هذا يعمل لحساب الشركة نفسها التي يعمل فيها شقيقها اوين. وبدا لها انه من المحتمل جداً ان يكون يعمل مع بعض منافسيها. ومهما يكن الامر، فان ليا حاولت تفسير ذلك بنفسها. والشيء الوحيد الذي كان يهمها فعلاً هو متى سيصل السيد سميث.

انتقل غرانتي بالحديث الى موضوع يهمه:

«هل تعيشين هنا في لاس فيغاس؟».

قالت ليا:

«اجل».

وقبل ان تسمع السؤال التقليدي، اضافت:

«اعمل سكرتيرة لاحد المديرين التنفيذيين في مصرف محلي».

وتمنت ان لا يضيف غرانتي العبارة التقليدية القائلة بأن ليا تصلح لأن تكون احدى العارضات في كازينوهات لاس فيغاس الشهيرة.

«وهل يعيش شقيقك في اوستن؟».

«مؤقتاً».

ومضت ليا تشرح وظيفته الحالية في اوستن.

«هل رأيته من زمن بعيد؟».

«كلا. لقد كنا معاً في عيد الميلاد، وانا اريد ان افاجئه اليوم بعيد ميلاده».

فقال غرانتي:

«لا شك انك تقدرينه كثيراً حتى تتحملي كل هذه المشقات والنفقات من اجله».

فوافقت ليا:

«علاقتي بأوين حميمة جداً».

ولم تتكلم عن طفولتهما الحافلة بالاسفار من طرف العالم الى طرفه الآخر مما يخلق ظروفاً لحتم نشوء علاقة حميمة ووثيقة بينها وبين اوين. وعلى رغم السنين الخمس التي فصلت بين ولادة كل منهما، فقد كانا اشبه بتوأمين.

ثم داعبها الطيار متسائلاً:

«وماذا يقول صديقك في هذا الامر؟ زعم ان لا تقولي لي انه ليس لفتاة مثلك صديق واحد على الاقل».

اجابت ليا وهي تضحك ساخرة من نفسها، فيما تذكرت رد فعل

مارفن:
«لعل له يشك في رجاحة عقلي».
ومارفن يعمل في دائرة المحاسبة التابعة للمصرف الذي تعمل فيه ليا. ولم يكن رأيها بطبيعة علاقتهما قد استقر بعد، رغم انها قبلت وصف مارفن وتصنيفه على انه صديقها.
الحقيقة انها لم تلق تشجيعاً للقيام بالرحلة من قبل اي من زملائها، او حتى من نانسي شريكتها في الشقة. وادعى الجميع انهم يفهمون رغبتها في رؤية اخيها، غير ان احداً منهم لم يبد مقتنعاً بأن من الحكمة انفاق كل مدخراتها من اجل هذا الهدف.
وبدهي انهم لم يحسوا برباط القربى الوثيق بينهم وبين اشقائهم او شقيقاتهم. ومن الرجح انهم لم يكونوا ليشكوا في سلامة رأيها فيما لو انفقت هذا المال لمقابلة صديق شاب. اما زيارة اخ، فلديها فكرة ترسم بسمة ساخرة على شفتيها.
وقال غرانت وهو يحدق الى ملامحها باعجاب:
«لا شك ان صديقك غاضب لانك لم تقضي معه عطلة نهاية الاسبوع. ولو كنت مكانه لغضبت».
القت ليا نظرة سريعة على ساعة الحائط، ثم تنهدت:
«بدأت اشعر انني لن اذهب الى اي مكان في عطلة الاسبوع هذه».
ومدت يدها الى حقيبتها، فاخرجت علبة تبغ مفتوحة، وسحبت منها سيكارة ذات فلتر. وبينما هي تبحث عن ولاعتها، انطلق الشرار من عود ثقاب في يد غرانت. فابتسمت شاكرة، ووضعت السيكارة على شفتيها الدراقني اللون. وحنت رأسها باتجاه اللهب.
طمأنها الطيار:
«لا تخافي. سيحضر رايلي. ولو كان يشك بامكان سفره لابلغك ذلك في مخابرته الاولى. ولكن، لماذا لا تمضين انتظارك في غرفة الطائرة في هذه الاثناء؟».

واضافت ليا:
«حسناً. سأكون بذلك قد خطوت خطوة اخرى باتجاه الاقلاع».
ربت غرانت على ركبتها:
«لا تيأسي. انا سنقلع».
ثم حمل حقيبة ملابسها وحقيبة ادوات زينتها، وانطلق نحو الباب الذي يقود الى حظيرة الطائرات. وهكذا عادت الدقائق تمر ببطء.
علا دخان سيكارتها فوق رأسها بشكل لولبي. فسحبت قليلاً من سيكارتها قبل ان تطلق دخاناً كثيفاً بعصبية مما جعل سحابة سوداء من الدخان تلفها.
فتح الباب الخارجي. فنظرت الى مصدر الصوت بلامبالاة وقد توقعت رجوع الطيار. غير ان شخصاً غريباً دخل منه.
وكانت قد وضعت في ذهنها صورة عن رايلي سميث. رجل في اواخر العقد الخامس من العمر، مكتنز الجسم، قصير القامة. وبنت افتراضها هذا على الرأي القائل بأن عضواً بارزاً في شركة تعدين يقدر ان يستأجر طائرة. ولا بد ان يكون متقدماً في العمر او كهلاً حتى يشغل منصباً رفيعاً.
لم تنطبق مواصفاتها هذه على هذا الرجل الفارع الطول والنحيل القامة، فهو لم يتجاوز اواسط العقد الرابع من العمر. وقد ملأ الشعر الفاحم ملامح وجهه البرونزي وقسماته الدقيقة. ولوحت الريح والشمس قسماته.
اما ملابسه، فكانت عبارة عن بزة عادية من قماش الجينز البني، وقميص ذات خطوط بنية وصفراء فتحت عند العنق لتظهر قطعة من الفيروز المعلقة بسلسلة من الفضة المطروقة.
وعلى رغم تباين صفات هذا الرجل الحقيقية وصورته في ذهن ليا، فقد بدت واثقة من انه رايلي سميث. واعترفت بذلك مظاهر كبريائه وشجاعته وغطرسته وانعزاله وخطواته العريضة.
واكدت ماري، وهي موظفة الاستقبال، صحة استنتاج ليا.

وأخيراً وصلت يا سيد سميث. كانت الآنسة تالبوت تغلي الآن من شدة غضبها.

عندئذ لاحظ وجود ليا في الغرفة للمرة الأولى. وبدت عيناه الخضراوين على نحو يستحيل معه قراءتها.

وارتعشت ليا عندما نظرت الى ان عينيه قدرت محاسنها برهة، ثم لفت عنها للتركيز على عمله.

ثم نظر جيداً لم يقصد بها التوضيح او الاعتذار:

«انشغلت. وقد تركت حقائبي في الخارج. فهل انت مستعدة للانطلاق يا آنسة تالبوت؟».

واستغربت ليا وقاحته في السؤال عن مدى استعدادها للانطلاق بعد ان انتظرت ثلاث ساعات. وسحقت عقب سيكارتها في المنفضة بعصبية وهي تكبح رغبتها الجامحة في تذكيره بانه هو الذي تأخر. وردت ببرودة:

«ان انتظرني في الطائرة يا سيد سميث».

اغلقت حقيبتها بعصبية محدثة صوتاً عالياً. وانتصبت واقفة. ولما خرجت من المبنى، شعرت بنسمة من ريح الصحراء هذب تنورتها البيج لتكشف عن قدمين حسنتي التشكيل. فامسكت ليا الجزء الامامي المفتوح من عباءتها بيد فيما حاولت بيدها الاخرى منع الهواء من رفع تنورتها مرة اخرى.

وأحدثت حذاؤها ضجيجاً اثناء سيرها على الأرض المرصوفة بالاسمنت. فيما لم يحدث الرجل السائر بجانبها اي صوت على الاطلاق. ونتيجة نظرة جانبية لاحظت ان كتفيه العاليتين لم يزيداها طولاً اذ لامست ذروة رأسها ذقنه.

والتفتت بسرعة الى اليد اليسرى التي تحمل بها حقائبه، لم تلاحظ وجود خاتم في اصبعه. لعلها توقعت ذلك بسبب قول غرادي ان رالف سميث ذئب منفرد بنفسه.

ورمت نظرها عميقاً الى الامام وهي تفكر بأن هناك فتيات

كثيرات يتمنين الاقتران برالف. فهو شاب انيق للغاية. ولم يكن ذلك ليعني لها شيئاً لأنها كانت تقصد زيارة شقيقها.

وقف غرادي على بعد بضعة امتار منها بجانب جناح طائرة من طراز «سيسنا ٣١٠» مطلية باللونين البرتقالي والأبيض. وبدت الطائرة ذات المحركين قوية وسريعة. وعلت وجه الطيار ابتسامة رقيقة عندما ابصر المسافرين يقتربان منه. وسأل ليا بلطف:

«الم اقل لك انه سيحضر، يا ليا؟».

ثم قال برجل اتوقف بجانبها

«مرحباً يا رالف».

اجاب رالف بلهجة حارة ولطيفة تختلف عن تلك التي تحدث بها الى ليا:

«مرحباً يا غرادي».

وبعد تبادل التحيات، تصافح الرجلان بحرارة.

ثم مد غرادي يده الى الحقائب التي حملها رالف في يده اليسرى:

«دعني اضع امتعتك في المخزن».

ناوله رالف سميث الحقيبة الكبرى بينما استبقى حقيبة اوراقه قائلاً:

«ساحمل هذه الحقيبة معي في الطائرة».

ثم نظر الى السماء التي اتشحت بوشاح ارجواني داكن. فرأى نجماً واحداً يتلألأ في ضوء الغسق المتفسخ. وسأل:

«كيف هي حال الجو يا غرادي؟».

تفرس الطيار بالسماء قليلاً ثم التفت الى المسافرين، وقال:

«ارى ان هناك عاصفة وشيكة. ولكن لدينا الوقت الكافي لبلوغ الوطن قبل هبوبها. واذا هبت قبل ذلك، فان الحال ستسوء. لكننا سنصل في اي حال».

واشار غرادي بيده الى باب الطائرة:

«تفضلا بالصعود».

وفيما وجدت ليا، وهي تلبس التنورة، صعود الجناح سهلاً بسبب السلم ذي الدرجتين الصغيرتين، وجدت الانتقال من المقاعد الأمامية الى المقاعد الخلفية اكثر ازعاجاً من الصعود. اما رايل، ففعل كل ذلك بسهولة بالغة جعلتها تحسده.

وجلس في المقعد المجاور لمقعدها. وكانت ليا قد توقعت ان يجلس في المقعد الأمامي بجانب غرادي نظراً الى ما يشدهما من صداقة. وبينما ربطت حزام الأمان حولها، لاحظت حقيبة الأوراق التي احضرها، ورجحت انه ينوي العمل.

وصعد غرادي الطائرة برشاقة ورمى بنفسه على مقعد الطيار امام ليا مباشرة. ثم نظر الى المسافرين بسرعة قبل ان يشد حزام الأمان حوله.

وفيما اجرى فحصه الأخير للطائرة، طرح عليهما سؤالاً:

«هل تعارفتما؟»

اجابت ليا:

«اجل».

وبينما بدأ محرك الطائرة الأول يهدر، دارت المروحة بسرعة بعد تردد. ثم علق الطيار: «انها مسافرة الى اوستن لزيارة شقيقها».

القت ليا نظرة جانبية على رفيقها، وهي تقول في ما بدا فرصة ذهبية لمعرفة ما اذا كان رايل سميث يعمل في الشركة نفسها او في شركة منافسة:

«اخي يعمل لمصلحة شركة تعدين. وهو عضو في فريق يعمل على مسح منطقة اوستن. وقد اشار غرادي الى علاقتك ببعض شركات التعدين. ولعلك تعرف شقيقي. اسمه لوني تالبوت».

لم تتمكن ليا من النفاذ الى عينيه الخضراوين اللتين التقتا بعينيها. ولكنها لمحت ابتسامة مرتسمة على شفتيه.

«لا».

وحال زئير المحرك دون الاستمرار في الحديث. واجبرت ليا على

لم تقضها بعض الوقت. وشعرت بالأمن نتيجة الظن بأن رايل سميث لم يعمل لمصلحة الشركة نفسها التي يعمل فيها شقيقها.

اما غرادي فتحدث بالراديو:

«م. س. كاران برج المراقبة الأرضي. هذا هو «جيروج ٩٢» يطلب معلومات للإقلاع».

رقصت ليا فرحاً وحماسة. فهي ستقلع بعد انتظار طويل. ونظرت من النافذة وهي تبتسم بينما كانت تفكر برد فعل لوني عندما يعلم انها تكلفت عناء السفر لحضور عيد ميلاده.

لمعت اضواء زرقاء خارج نافذتها فيما درجت الطائرة حول ممر السيارات في طريقها الى مدرج المطار. وعند بلوغ حافة المدرج، اصبح هدير المحركين اشبه بقصف الرعد. واستعد غرادي للانطلاق. عندئذ تلقى اذن البرج بالاقلاع.

وتطلع غرادي الى الوراء قليلاً وقد ارتسمت على وجهه الجلد ابتسامة مرح:

«سوف نرتفع بهذا الطائر عن الأرض».

دارت الطائرة حول نفسها بسهولة وهي تتجه نحو المدرج فيما ازدادت سرعة المحركات. واحست ليا بتعاظم السرعة فيما حلت الفرامل وضغطت دواسة البنزين. وارتفع مقدم الطائرة عن الأرض. وبعد ثوان قليلة ارتفعت الطائرة وصعدت طبقات الجو وقد نبض جهاز الهبوط في اسفلها.

وشاهدت ليا عبر نافذتها وهج اضواء المدينة وهي تختلط بخيوط الليل الأولى. وبدت اضواء النيون الساطعة في فنادق وكازينوهات منطقة «لاس فيغاس» الشهيرة اشبه بشريط براق متلألئ بالوانه الزاهية.

وحذر غرادي ليا، التي استقرت في شبه وقفة، تحاول عبور الممر الضيق المؤدي الى المقاعد الأمامية:

«لا تصطدمي بأي من اجهزة التحكم».

ثم امسكت بكوعها يد مساعدة ادركت ببعض الدهشة انها يد رايل سميث. وكانت لمسته قوية مطمئنة وخاطفة.

وتجنبت الاصطدام باجهزة التحكم في ارض الطائرة، ثم جلست على المقعد الأمامي الأيمن بعد ان مدت تنورتها فوق ركبتيها. لقد عبرت مقعدها من دون حدوث مشكلة على رغم ضيق المسافة.

قالت وهي تنظر فوق كتفها الى اليد الثابتة:

«شكراً. وآمل يا سيد سميث ان لا نزعجك انا وغرادي بحديثنا».

«في الحقيقة افكر ان اترك العمل بعض الوقت، وانام قليلاً».

واتبع جملته بغلق حقيبة اوراقه.

ولما اطفأ مصباح القراءة، تمنت ليبا لو انها لم تنتقل من مقعدها لأنها رغبت في انتهاز فرصتها بالتعرف الى رايل سميث.

هز غرادي رأسه وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ساخرة:

«انه منهمك».

وسألت ليبا باستغراب:

«بماذا هو منهمك؟».

قال الطيار وهو يحرك يده الى الخلف ويشير الى الرجل النائم وراء ليبا:

«بالنوم».

تنبهت ليبا الى ان بامكان رايل سميث ان يسمع حديث الطيار. فنظرت فوق كتفها لترى ردة فعله على كلامه. فوجدته مستلقياً في مقعده وقد اغمض عينيه واخذ صدره يتحرك بانتظام.

وتنهد غرادي:

«انه نائم. لقد اغمض عينيه دون ان يحرك رأسه او جسده».

والتفتت ليبا وهي تستقر في مقعدها:

«انه لطيف».

ثم نظرت الى لوحة الأجهزة المضاءة بالاشعة تحت الحمراء،

وسألت:

«هل الطائرة تطير بدون طيار الآن؟».

غير ان ليبا لاحظت طريقة غرادي الآلية في تفحص الاجهزة وهو يجيب:

«اجل. هل اتيحت لك الفرصة للجلوس في مقعد امامي في طائرة خاصة من قبل؟».

قالت:

«اصطحبني والدي غير مرة في الطائرة. لكنني لم ار طائرة متقدمة مثل هذه».

وابتسم غرادي لها:

«انها عاملة من عالم الطيران الحديث في عصر الكومبيوتر. وهذه الطائرة تفعل كل شيء، الا ما عدا عملية الهبوط. لكنني اكاد اقول انها تفعل ذلك بنفسها تقريباً. انها رائعة. غير ان كل الآلات [illegible]. ولكن، لنترك حديث الطيران لأنني اسمعه طوال النهار. فانا اقول ان باستطاعتك ان تخبريني شيئاً عن طفولتك خصوصاً. وانك ما زلت شابة وان الرحلة طويلة».

فضحكت ليبا ضحكة عذبة:

«لن تأخذ القصة طويلاً. فقد عشت انا وشقيقي مثل اولاد سائر الطيارين العاملين في السلاح الجوي».

ثم اضافت صورة مختصرة لحياتها اثناء الطفولة وهي تنتقل من قاعدة جوية الى اخرى

«ولكن، بحق السماء قولي لي كيف بلغ بك المطاف الى لاس فيغاس؟».

«لقد تم ذلك بالطرق العادية. اذ نقل والدي الى قاعدة نيلس التابعة للسلاح الجوي عندما كنت في الصفوف الثانوية. ولما تخرجت وبدأت دورة في علوم السكريتارية، صدر اليه امر بالتوجه الى الاسكا. واردت انهاء تدريبي. ولذلك بقيت في لاس فيغاس،

خصوصاً ان الوقت حان لأعيش مستقلة».

قال غرانتي ساخراً:

«هل اغرتك الأضواء الساطعة؟».

ردت باصرار:

«لا ابداً فأنا سعيدة لكوني سكرتيرة، ولست ارغب في ان اكون عارضة من اي نوع. فعملي شاق وساعات الدوام مليئة بالجهود».

وافق غرانتي:

«هذا صحيح. هل انت مثل سائر سكان لاس فيغاس لا تدخلين الكازينوهات الا في ما ندر وذلك لحضور مناسبة هناك؟».

قالت:

«بالضبط».

ثم اضافت:

«انا لا ازور الكازينوهات الا عند افتتاح عرض جديد، او ظهور نجم احبه. ولكنني في الأجمال اترك متنفسات القمار للسياح والمقامرين».

ثم توقف غرانتي ليرمقها بنظرة فاحصة:

«اخبريني. هل قلت انك كنت في جنوب المحيط الهندي بعض الوقت؟».

«نعم».

«اذكر انني زرت هذه الأمكنة عندما كنت في الخدمة. غير انني لن اقول لك متى كان ذلك».

وصب عليها سيلاً من الاسئلة محاولاً اختبار ذاكرتها ليرى ان كانت زارت امكنة قام بزيارتها هو بنفسه. وقارن وصفها لتلك الأماكن بما علق بذاكرته.

ثم خيم الصمت. ونظرت ليا الى السماء المرصعة بالنجوم الى شرق نافذتها. وشعرت بارتياح بالغ.

همس غرانتي:

«اذا كنت تشعرين برغبة في النوم، يمكنك الرجوع الى مقعدك الخلفي. فهناك يمكنك ان تمدي رجليك دون الخوف من الاصطدام باي من اجهزة التحكم».

ووافقت متنهدة:

«اظن انني سأفعل ذلك».

ومع ان ليا حاذرت ايقاظ رايلي النائم، فان عبور الممر الضيق كان اسهل عليها هذه المرة. ولما استوت في مقعدها، لاحظت سواد السماء امام عينيها. وسألت غرانتي بهدوء:

«اليست السماء في غاية الظلمة امامنا؟».

«لا شك ان هذا دليل على العاصفة. والمهم ان اراجع دائرة الرصد الجوي للاطلاع على نشرة جديدة عن حالة الطقس».

اتصل بالدائرة بينما ربطت ليا حزام الأمان. لم تسمع ليا البرقية الجوابية بوضوح، غير ان غرانتي نقل اليها مضمونها.

«سنطير مع العاصفة حتى نبلغ اوستن. والأفضل ان تشدي حزام الأمان حولك بقوة لأن الأحوال ستسوء قليلاً».

ثم نظر الى الوراء باتجاه الرجل النائم وصاح:

«رايلي».

اجاب رايلي بهدوء:

«سمعت البرقية».

وتمدد رايلي بحزم وهدوء فيما شد حزام الأمان حوله.

فتحدثت ليا اليه من دون تفكير:

«لقد ظننتك نائماً».

«اجل».

لكنها لم تلحظ اي اثر للنوم في صوته. فقدرت بأنه استيقظ بالسرعة نفسها التي عاد بها الى النوم.

٢- وحيدان في الليل

اشتدت حلكة السواد حول الطائرة الصغيرة ذات المحركين التوأمين. واضيئت السماء بخطوط البرق. وتعاقبت تيارات هوائية عنيفة متعارضة على جذب الطائرة الى الوراء ودفعها الى الامام.

ومع كل وثبة وثبتها الطائرة، وارتجفت لها قلوب المسافرين، تراجع غرادي الى الوراء ليتجنب زيادة الضغط على هيكل الطائرة. وتفاقمت شدة الصدمات.

ومن دون ان يرفع غرادي عينيه عن آلات القياس ولوحات الاجهزة المتراقصة امامه مع انتفاضات الطائرة، نادى رايلي طالباً منه الانحناء الى الامام. فحلّ المسافر ذو الشعر الاسود حزام مقعده قليلاً، وانحنى صوب الطيّار الذي قال:

«ستزداد الاحوال سوءاً. ولكنني سأجرب التحليق حول دائرة العاصفة. هل هذا معقول؟».

«حسناً».

لم يبد على رايلي اي اضطراب او خشية من حالة الطقس.

اما ليا، فعلى رغم ثقتها بجدارة طيارَيها وكفاءته ولياقة طائرتيها، وجدت نفسها ترتجف خوفاً وهلعاً. وبررت شعورها بالخوف بالرأي القائل ان المجنون وحده لا يخاف لو يفزع.

حبست ليا انفاسها عندما امال غرادي الطائرة جانباً الى الشرق محاولاً ان يسبق العاصفة ويدور حولها. ثم رمقت الرجل الجالس قربها بنظرة طويلة جعلتها تقتنع بان وراء وجهه الخالي من اي تعبير اعصاباً فولاذية.

وشدّ تيار هوائي الطائرة نزولاً. وما ان افلتت من قبضته حتى كادت ليا تتقيأ. اما السواد المحيط بهم، فلم يتبدد الا بفعل ألسنة

البرق النارية التي اخترقت الاجواء من حولهم. وظلّت الطائرة في اندفاعها وسط الضجة.

وصاح غرادي:

«لا استطيع اختراق هذه العاصفة، ولذا سأهبط بضعة آلاف من الاقدام لارى اذا كانت طبقات الجو هناك اهدأ».

لم يكن هناك حاجة للتعليق. فقد شعرت ليا ان ليس بامكانها ان تتفوه بكلمة لشدة جفاف حلقها وفمها. وقد شعرت عند نزول الطائرة انهم يغوصون في لجة البحر، الا انها ادركت ان غرادي يتحكم بعملية الهبوط. وراقبت ليا عبر زجاج النافذة المصقول كالمرآة الطيّار وهو يبسط اجنحة الطائرة. ولمع البرق امامهم مضيئاً بانواره الصفراء والبيضاء السماء بضع ثوان.

وفي الوقت الذي سمعت فيه ليا غرادي يصيح: «يا الهي»، رأت كتلة سوداء سميكة ترتفع امام مقدم الطائرة.

وما كادت تلاحظ ان ما رأته كان جبلاً، حتى انقلبت الى جنبها لان غرادي حرف الطائرة بحدة الى اليمين.

والتمع وميض البرق مزيداً من الجبال في طريقهم.

وقال غرادي بحنق وهو يميل الطائرة بحدة:

«لا يفترض وجود جبال على هذا الارتفاع. لا شك ان مقياس العلو...».

لم يكمل جملته، لان وميض البرق كشف له طريقاً للخلاص فوق تلة محدودبة تصل بين قمتين شاهقتين. ووجه غرادي مقدم الطائرة الى حيث ظن ان التلة تقوم. وتجمدت ليا كالجليد وهي تنتظر ومضة البرق التالية لتكتشف لها صحة اتجاهه.

وتأخر البرق الا وجدوا انفسهم قرب الجبل عندما اضاء الوميض السماء وكشف ان غرادي اخطأ هدفه. وتحتم ان تصطدم الطائرة بجرف الجبل.

وسرعان ما حاول غرادي اصلاح خطأه وصاحت ليا في سرها

خائفة:

«آه يا لوزي».

اطبقت اصابع آنية على عنقها بقوة وكأنها خطاف. وشدت رأسها الى ركبتيها حيث دفنته.

وبلغ خوفها امر رايلي:

«ابقي رأسك هنا».

ارتجت الطائرة بعنف اذ اصطدم طرف جناحها الايمن بحرف الجبل فانشطر.

وسقطت الطائرة فيما هتف غرادي بصوت خفيض:

«ارتفعي يا عزيزتي».

وارتطم اسفل الطائرة بالارض الصلبة. ثم اندفعت مسافة اقدام قليلة على الارض حيث ارتطم جناحها الايمن ثانية بجسم صلب ثابت. وراحت الطائرة تدور حول نفسها.

لف صرير المعدن ليا من كل الجهات الى ما لا نهاية. وتساءلت لماذا حدث كل ذلك ببطء شديد. وتكسر الزجاج فوق رأسها. ثم سمعت مزيداً من المعدن يتحطم عند جنبها الايسر.

شعرت ليا بألم خفيف فيما غشي عينيها السواد. ومع انها لم تفقد كامل وعيها، فانها لم تنتبه الى ما جرى حولها اذ اصم الهدير اذنيها عن كل الاصوات المحيطة بها.

واخذ الضباب الاسود بالانحسار. واحست خطافاً حديدياً يشدها الى فوق. وما هي الا لحظة حتى انتبهت ان ذلك لم يكن سوى ذراع قوية.

وسمعت صوتاً قوياً ثابتاً وكأنه يأتي من مسافة بعيدة:

«انهضي فعلينا ان نخرج من هنا».

ادركت ليا ان عليها ان تطيع الامر. وهزت رأسها لتطرد منه الدوار. وطوقت الذراع وسطها تساعد رجليها المرتجفتين على السير.

وفجأة ادركت وهي تتنفس بصعوبة انها ما زالت حية، وان الذراع التي ساعدتها على الانزلاق من باب الطائرة المفتوح جزئياً هي ذراع رايلي سميث. وفيما انسلت من شق الباب الضيق وهي تتعثر بالمقاعد، استغربت لماذا لم يحاول رايلي توسيع فتحة الباب.

وادركت السبب عندما لامست قدماها الارض المغطاة بالحجارة الصغيرة. فقد توقفت الطائرة طولياً بجانب جدار الجبل مما حال دون توسيع فتحة الباب.

وما ان خرجت حتى احست بالريح تعصف بشعرها والقطر ينهمر على وجنتيها والرعد يقصف في السماء. وارادت ان تتكئ على الطائرة وتبكي بصمت تعبيراً عن فرحها وامتنانها لبقائها حية. لكن الذراع التي احاطت بخصرها منعتها من ذلك.

وقال رايلي بحزم:

«لا يمكننا ان نقف هنا».

لم تعترض على ارشاداته لانها اقتنعت بصوابها. ومع ان الخدر اخذ يتلاشى من ساقيها، فانها شعرت بصعوبة السير على الارض المنحدرة خصوصاً وان كعبي حذائها كانا مرتفعين.

ولما ابتعدا قليلاً عن الطائرة، توقفا في فتحة جبلية صخرية. وازاح رايلي ذراعه، التي استندت اليها ليا. وضغط بيده على كتفها ليجلسها على الارض.

وقال بلهجة آمرة:

«انتظري هنا فسأعود الى الطائرة. اجلسي والا اصبحت هدفاً سهلاً للصواعق».

هزت ليا رأسها، ثم تكلمت:

«سأفعل».

ولما استدار ليتركها، تذكرت:

«اين هو غرادي؟».

ولم يجب سؤالها، الذي اندفع منطلقاً في الظلام. وظنت انه ربما لم

يسمعها، او انه عاد لينقذ الطيار.

وومض البرق ليمكنها من مشاهدة ملامحه المعقدة وسن دؤبة هيكل الطائرة المحطم. فارتعدت استغراباً وخوفاً من اعجوبة خلاصهم.

لم يكن بالامكان تسمية الرذاذ المتطاير مع الريح مطراً. الا ان ليا التي انتظرت في العتمة شعرت ان المطر بلل ملابسها. فشدت عباءتها حولها.

ونتيجة ذلك شعرت بوخز الم في ذراعها اليسرى. وتحسست بدقة موضع الالم بيدها اليمنى. ووجدت ان كم بلوزتها كان رطباً ولزجاً ودافئاً. ولمست اصابعها الجرح في ذراعها. غير انها لم تتذكر انها اصيبت. وضغطت بيدها على الجرح غريزياً بقصد ايقاف سيلان الدم. ولم تتمكن ان تتأكد من عمق الجرح في هذه الظلمة. وما ان انشغلت مكانه حتى بدأ الجرح ينبض. واحست ليا فجأة بالبرودة والوحدة.

وحاولت محاولة اختراق ستار الليل الاسود لتلمح الرجل الذي قادها الى هنا. لكنها لم تستطع ان ترى سوى وميض الدخان الابيض على هيكل الطائرة.

لمع البرق ودوى الرعد على الفور. وتذكرت ليا انها وعدت ان تنتظر رايل سميث، غير انها قررت ان تنكث بعهدها ان هو لم يعد سريعاً.

انبعثت من الطائرة هالة ضوء خفيفة غمرت الارض الصحراوية ذات الاشجار المنخفضة، ومرت بضع لحظات يقف فيها شعر البدن، وذلك قبل ان تكتشف ليا ان مصدر النور كان مصباحاً وانسلت من حلقها ضحكة ممزوجة بالتنهد.

واستطاعت ان ترى الرجل الطويل وهو يحمل جسماً على كتفيه، لعله غرادي، فحبست انفاسها بانتظار وصول الرجل اليها.

وحمت ليا عينيها اللتين عميتا من وهج النور المنصب عليهما في

الظلمة. وابتعد الضوء عنها عندما ركع الرجل قربها وهو يرمي عن كتفه الحمل الثقيل. وحدقت الى الحزمة المؤلفة من معطف شدت اكمامه ليحمل في داخله بعض الامتعة المتفرقة.

وفيما جحظت عيناها محدقة وجه الرجل الخالي من التعبير، واستجمعت ذهنياً لتلقي جوابه، سألت:

«اين هو غرادي؟»

اجاب وهو يُعمل اصابعه برشاقة ليحل اكمام المعطف:

«مات»

فهمست بحرقة:

«كلا»

اقتنعت بصحة قوله. فليس الموت امراً للمزاح. وحاولت ان تخفي الرعشة في صوتها حين قالت:

«هل تركته في الطائرة؟»

بدت ملامحه كالقناع وعيناه الخضراوان خاليتين من اي مسحة حزن عندما قال:

«نعم. والآن دعيني ارى ماذا يمكنني ان افعل لجرحك.»

لمست ليا جرحها النابض بالالم بلا مبالاة. وظنت ان من الخطأ ترك غرادي تحت انقاض المعدن. ولم تقبل بسهولة حقيقة وفاة هذا الرجل الحار والمليء بالحيوية.

«يجب ان تحملي المصباح.»

لم ترد ليا على كلمات رايلي، فعبس وقطب جبينه:

«حسبك هذا.»

قالت ليا مشدوهة:

«ما... ماذا؟»

ردد كلامه باقتضاب:

«قلت ان عليك ان تحملي المصباح حتى اتمكن من معاينة ذراعك.»

ودمعت عيناها وهما تطرفان فيما امسكت المصباح المبتل والبارد باصابعها. وركزت شعاعه على جرحها. واستطاعت ان ترى خارج دائرة الضوء راولي سميث يستل سكينه من جيبه ويرفع نصلها:
«سوف اشق قص الكم».
وما كاد ينهي عبارته، حتى شق نصل السكين موضع درز الكم.
وبسرعة اصبح الكم في يده.
واستعمل بقية الكم ليمسح الدم باتئاد حتى يتمكن من رؤية عمق الجرح. ولم يكن الجرح المؤلم منظراً ساراً. فابعدت ليا نظرها عنه. وشعرت براولي يبحث في الجرح عن اي شظية زجاج او معدن. واحست به ينفض وكأن ليا اشتعلت فيه.
ثم استدار ليفتح الغطاء المعدني عن الصندوق الكبير الملىء بمعدات الاسعافات الاولية الذي وضعه بجانبه. واخرج قنينة مليئة بسائل مطهر. ثم رد الغطاء مكانه قبل ان يُفسد المطر ايا من المحتويات. وتلألأت حبيبات الماء كالماس في شعره الفاحم السواد. وحذرها:
«سيوجعك هذا قليلاً».
على رغم تأهب ليا للعملية، فانها لم تستطع منع نفسها من اطلاق صيحة الم مختنقة خصوصاً عندما ارتعشت ذراعها متجنبة السائل الناري.
«اهدأي».
فصرخت في وجهه:
«انه يؤلمني».
غير ان راولي سميث تجاهل ذلك، وقال:
«امسكي الضوء جيداً حتى ارى ما افعله».
وشعرت ليا انه قاس وغير حساس، اذ كان بامكانه ان يقول لها انه آسف لما يصيبها من الالم، ولكن ليس باستطاعته ان يساعدها بغير هذه الطريقة.

وصرفت على اسنانها وهي تركز الضوء على ذراعها ثانية. ولم تصرخ في هذه المرة وهو يصب السائل المطهر على جرحها على رغم ترنح المصباح قليلاً. ثم ضمد الجرح بفاعلية ورشاقة.
قالت ليا وهي تشعر ان الالم بدأ يخف قليلاً:
«اشكرك».
اجابها وقد ارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيه:
«لا شكر على واجب».
ثم تناول المصباح من يدها ووضعه على الارض. فشع نوره حتى غرقت بضوئه البقعة الخالية من الاشجار حيث اقاما. وفرد المعطف على الارض. ثم ادخل مسدساً تحت حزام سرواله الجينز وشد بزته ليمنع المطر من التسرب اليه. ووضع جانباً قنينة ماء وعلبة صغيرة، ومربعاً من مادة مطوية حمراء اللون. ثم وقف ينفض المعطف. وقدمه الى ليا قائلاً:
«هذا سيمنع المطر عنك».
ارخت ذراعيها اللتين استقرتا على خصرها قليلاً وهي تشعر بدفء الرطوبة في ملابسها المبللة. وقالت:
«ارجو ان تلفت انتباهك الى انني قد تبللت».
القى عليها معطف رجل. ثم شد ياقته حول عنقها:
«لا اريد ان يبلل المطر الضمادة. وكما تعرفين، فان هواء الصحراء والجبل يبرد في الليل، سواء كان ذلك في الربيع او في اي فصل من السنة. واذا لم يحمك هذا المعطف من المطر، فانه سيقيك البرد على الاقل».
الواقع ان ليا ارادت بعض الملابس الجافة. لكنها ادركت انها ستبتل هي الاخرى. وبحذر شديد ادخلت ذراعها المصابة في احد الاكمام وادخلت ذراعها الاخرى في الكم الآخر باتئاد. ثم زررت المعطف.
ولما ارتاحت في المعطف الواسع، سألت من دون تفكير:

«معطف من هذا؟».

«انه معطف غرادي».

فشحب وجه ليا. وفجأة لم تشعر بالراحة نفسها، فأخذت تفك ازرار المعطف. وهمست بحنق:

«بامكانك ان ترتديه انت».

اجابها بصوت ثابت فيما دقق النظر الى وجهها:

«كلا! فانه في اي حال لن يعترض يا آنسة تاليرند».

ثارت عينها لدى سماعها عبارته الوقحة وصاحت:

«كيف يمكنك ان تكون عديم الاحساس والشعور هكذا؟».

رد رايلي مسببت بهدوء:

«انها الحقيقة مهما كانت قاسية».

وانتقلت اليه عدوى غضبها من دون ان تؤثر على رباطة جأشه حين قال:

«لا يمكننا ان نفعل اي شيء من اجل غرادي. همنا الاول محصور في انفسنا. فعلينا ان نستعمل كل ما نجده لنتمكن من البقاء على قيد الحياة هذه الليلة».

كبح منطقه الصائب انفعالها. فعادت تزرر المعطف ثانية وهي تصرخ بقليل من التمرد:

«بامكانك ان تشعل ناراً تدفئنا وتجفف ملابسنا».

قال بجفاء وهو يذكرها:

«ان السماء تمطر».

ثم رفعت شعرها الكستنائي عن جبهتها وهي تقول بعصبية:

«حسناً. ليس هذا صعباً عليك لانك عندي في بعض اصلك».

ورمقته بنظرة فاحصة وهي تعض باسنانها على شفتها السفلى ندماً. لقد كان قولها جارحاً ينم عن تعصب. ولم تقصد ان يفهمه على هذه الطريقة ابداً. فقد اغاظها برباطة جأشه وجعلها لا تفكر عندما اجابته بهذه الكلمات.

وانحنى ليلتقط المربع الاحمر الفضي، وهو يقول بصوت سمعت فيه رنة تهكم:

«بامكاني ان اشعل ناراً تحت المطر اذا تمكنت من العثور على بعض الحطب الجاف. وبامكاننا ان نؤجج النار بعد بضع ساعات. ولو انا لم نستسلم للتعب والسخرية، لكان بامكاننا الاستمتاع بها آنذاك».

ونظرت ليا الى الارض وهي تتنفس بعمق لتصعد زفرة بطيئة وهي تعتذر:

«آسفة. فانا لم افكر اننا لا نستطيع ان نجلس الا تحت المطر. الا نستطيع ان نبيت في الطائرة؟».

كان احد جوانب المربع الاحمر، الذي احدث صليلاً عالياً عندما طرحه رايلي ارضاً، يشبه الالومينيوم. اما طلاء ذلك الجانب الفضي، فتلألأ تحت ضوء الصباح. وعلق رايلي:

«سيشكل معدن الطائرة مسرى للبرق مما يجعله خطيراً للغاية. وفي اعالي الجبل بعض بقايا منجم مهجور. يمكن ان يدفعها المطر فتسد الباب مع الصباح. ولا شك اننا سنبرد ونبتل هنا، الا ان الطائرة لن تكون اكثر حرارة. وفي اي حال، فاننا لن نحبس هنا تحت الانقاض».

كان من المفروض ان تستسلم ليا لسداد منطقه مجدداً. الا انها شعرت بالاستلاب والبرد المتزايد. وبدأت اسنانها تصطك واخذت ذراعها تيبس فتؤلمها.

ونظرت اليه نظرة مليئة بالتعب وهي تسأله:

«وماذا ستصنع؟».

حان الوقت ليقترح حلاً، اذ كانت افكارها خاطئة.

«اتبعني».

ثم امسك كوعها بيده ليساعدها على الوقوف. ووقفت ليا وهي تنظر بريبة الى خطوته التالية. وكانت تلتف بطانية ارتفعت بعض اجزائها فوق رأسها في شكل نصف قبة.

ابلغها وهو يضع طرف البطانية بين اصابعها:
«امسكي هذا الجانب».
ثم تردد وهو يتفحص نظرتها الفضولية:
«يجب ان نلتف بهذه البطانية لتمنع عنا المطر قدر الامكان، ولندفأ بحرارة اجسامنا».
قالت ليا وهي تردد معنى كلماته:
«هل تقصد ان تقول ان علينا ان ننام جنباً الى جنب؟».
واصابتها رعشة. ثم حاولت ان تمنع اسنانها من الاصطكاك حالياً. ثم اضافت ساخرة:
«هذا هو الحل العملي والمنطقي. اليس كذلك؟».
هز رأسه وقد ارتسمت على وجهه المبلل ابتسامة خفيفة:
«اجل».
ولما كانت مبللة ومتعبة، شعرت بالبرد الشديد فلم تكترث الى ان والديها لن يصدقا انها التحفت البطانية نفسها مع رجل غريب.
بادلته الابتسام وهي توافق:
«لنفعل ذلك بأقصى سرعة».
ثم امتدت ذراعه الى طيات المعطف الواقي من المطر الملتصقة عند خصرها، بينما لف البطانية حوله بقوة. وعندما اعطى الاشارة، تمددا على الارض جنباً الى جنب.
ونام رايلي على ظهره جاعلاً رأس ليا وكتفيها فوق صدره ومحدداً جسمها بجانبه. تساقطت حبيبات المطر على البطانية ساعية للتسرب اليهما، الا ان الطبقة الواقية من الماء ابقتهما جافين.
واول الامر لم تحس الا ببرودة جسمه الصلب ورطوبته. ولكن سرعان ما شعرت بدفئه ينساب متدفقاً عبر ثيابه المبللة. فالصقت نفسها منه وهي ترتجف. واخذ يفرك ظهرها وكتفيها وخصرها مع الحرص على تجنب الاصطدام بذراعها الجريحة التي كانت تنبض باستمرار وسألها:

«هل تشعرين بالتحسن؟».
وحرك نفسه الحار الهواء قرب جبهتها.
اجابت وهي تتنفس برضى:
«نعم».
وتنفست نفساً عميقاً برضى وقد تعاظمت في انفها رائحة المسكية نتيجة سقوط المطر.
وظلت يداه تعملان بانتظام وبطء. عادت الحرارة الى جسمها الا شعرت انها استردت حيويتها ثانية. ولم تعد تفكر بحاجتها الجسمانية، بل بدأت تهتم بامور اخرى.
وقالت بهدوء:
«لا شك ان فريق عمل سيبدأ بالبحث عنا صباحاً، اليس كذلك؟».
«بلى!».
«كم سيستغرقون من الوقت حتى يعثروا علينا؟».
«من الصعب التخمين».
ظنت ليا لدقيقة ان ذلك كان جواب رايلي الوحيد. لكنه سرعان ما اضاف:
«لم يكن هناك متسع من الوقت لارسال برقية تحدد موقعنا. فقد كان غرادي مشغولاً الى اقصى الحدود بمحاولته منع الطائرة من الاصطدام بحرف الجبل. واذا كان قد اخفق في تنفيذ خطة الطيران، فانه قد طار بعيداً عن الخط المرسوم له ساعياً بذلك ان يبتعد عن دائرة العاصفة ولا شك ان فريق الاستطلاع سيبدأ التفتيش في منطقة الطيران المرسومة اصلاً. ثم يوسع بحثه اذا لم يعثر على الطائرة في تلك المنطقة».
«واذن، من المحتمل ان يعثروا علينا بعد ظهر الغد».
اعقب سؤالها لحظة من التردد، ثم قال:
«هناك مساحة واسعة من الارض الوعرة التي يجب ان يستطلع

ابلغها وهو يضع طرف البطانية بين اصابعها:
«امسكي هذا الجانب».
ثم تردد وهو يتفحص نظرتها الفضولية:
«يجب ان نلتف بهذه البطانية لتمنع عنا المطر قدر الامكان، ولندفأ بحرارة اجسادنا».
قالت ليا وهي تردد معنى كلماته:
«هل تقصد ان تقول ان علينا ان ننام جنباً الى جنب؟».
واصابتها رعشة. ثم حاولت ان تمنع اسنانها من الاصطكاك عالياً. ثم اضافت ساخرة:
«هذا هو الحل العملي والمنطقي. اليس كذلك؟».
هز رأسه وقد ارتسمت على وجهه المبلل ابتسامة خفيفة:
«اجل».
ولما كانت مبللة ومتعبة، شعرت بالبرد الشديد فلم تكترث الى ان والديها لن يصدقيها انها التحفت البطانية نفسها مع رجل غريب.
بادلته الابتسام وهي توافق:
«لنفعل ذلك بأقصى سرعة».
ثم امتدت ذراعه الى طيات المعطف الواقي من المطر المتعلقة عند خصرها، بينما لف البطانية حوله بقوة. وعندما اعطى الاشارة، تمددا على الارض جنباً الى جنب.
ونام رايلي على ظهره جاعلاً رأس ليا وكتفيها فوق صدره وممدداً جسمها بجانبه. تساقطت حبيبات المطر على البطانية ساعية لتتسرب اليهما، الا ان الطبقة الواقية من المادة ابقتهما جافين.
واول الامر لم تحس الا ببرودة جسمه الصلب ورطوبته. ولكن سرعان ما شعرت بدفئه ينساب متدفقاً عبر ثيابه المبللة. فأدنت نفسها منه وهي ترتجف. واخذ يفرك ظهرها وكتفيها وخصرها مع الحرص على تجنب الاصطدام بذراعها الجريحة التي كانت تنبض باستمرار وسألها:

«هل تشعرين بالتحسن؟».
وحرك نفسه الحار الهواء قرب جبهتها.
اجابت وهي تتنفس برضى:
«نعم».
وتنفست نفساً عميقاً برضى وقد تعاظمت في انفها رائحته المسكية نتيجة سقوط المطر.
وظلت يداه تعملان بانتظام وبطء. عادت الحرارة الى جسمها الا شعرت انها استردت حيويتها ثانية. ولم تعد تفكر بحاجتها الجسماني، بل بدأت تهتم بامور اخرى.
وقالت بهدوء:
«لا شك ان فريق عمل سيبدأ بالبحث عنا صباحاً، اليس كذلك؟».
«بلى!».
«كم سيستغرقون من الوقت حتى يعثروا علينا؟».
«من الصعب التخمين».
ظنت ليا لدقيقة ان ذلك كان جواب رايلي الوحيد. لكنه سرعان ما اضاف:
«لم يكن هناك متسع من الوقت لارسال برقية تحدد موقعنا. فقد كان غرادي مشغولاً الى أقصى الحدود بمحاولته منع الطائرة من الاصطدام بحرف الجبل. واذا كان قد اخفق في تنفيذ خطة الطيران، فانه قد طار بعيداً عن الخط المرسوم له ساعياً بذلك ان يبتعد عن دائرة العاصفة ولا شك ان فريق الاستطلاع سيبدأ التفتيش في منطقة الطيران المرسومة اصلاً. ثم يوسع بحثه اذا لم يعثر على الطائرة في تلك المنطقة».
«واذن، من المحتمل ان يعثروا علينا بعد ظهر الغد».
اعقب سؤالها لحظة من التردد، ثم قال:
«هناك مساحة واسعة من الارض الوعرة التي يجب ان يستطلع

فيها فريق البحث. وربما بلغوا موضعنا بعد ظهر يوم الاحد او الاثنين».

ارتجفت ليا من البرد وهي تقول:

«انا سعيدة لانني لم ابلغ لوزي بقدومي اليه. فهو في اي حال لن يقلق عليّ لبعض الوقت ويفكر اذا كنت من بين الاموات او الاحياء.

ستبلغ السلطات والديها اولاً. وهما بدورهما سيبلغان شقيقها. وعندئذ ربما اكون قد انقذت.

«هل كنت تزمعين ان تفاجئيه؟».

هزت ليا رأسها وهي تحرك وجنتها فوق قماش بزته الرطب. ثم تنهدت قائلة:

«كنت ازمع مفاجأته بمناسبة عيد ميلاده الذي يصادف غداً».

ثم حاولت ان تبعد افكارها عن هذا الامر المزعج والمحزن، فسألته:

«ألم يكن بانتظارك احد؟».

«بل. بعض اصدقاء اتعاون معهم في العمل».

امالت رأسها الى مؤخر كتفه وهي تحاول اختراق الظلمة لتلمح وجهه، وسألت:

«لحساب من تعمل؟».

ظهر فضولها سافراً لانها شعرت بانتفاء الحاجة الى صياغة اسئلة دبلوماسية وهي تقبع بين ذراعيه، فاضافت:

«هل تعمل لمصلحة شركة تعدين تنافس الشركة التي توظف شقيقي؟».

رد:

«انني اعمل لحسابي».

«هل تملك شركة تعدين؟».

بدت امارات الصبر والتروي على صوته:

«كلا. فانا اصنع الجواهر».

ما ان استوعبت قوله، حتى تذكرت قطعة الفيروز التي تدلت من عنقه. فسألت:

«مجوهرات من الفيروز؟».

رد بسخرية واضحة ومقصودة:

«او مجوهرات هندية، سمها كما شئت».

تجهمت ليا وهي تدافع عن نفسها:

«لم اقصد ان اهزأ واتهكم عندما ابديت ملاحظتي الاولى. فقد كنت مبللة، وشعرت بالبرد، وظننت ان النار هي العلاج الطبيعي، وبكل بساطة لم اعرف كيف اشعل ناراً».

ثم ترددت وقد اغاظتها اشارته غير المباشرة الى ملاحظتها الجارحة التي اطلقتها من دون تفكير. وقالت:

«لقد اشار عرافي الى ان دماً هندياً يجري في عروقك لذا قلت ما قلت لاعتقادي بانك تحسن اشعال النيران فيما لا اعرف انا شيئاً عن هذا الامر».

علّق رايلي سميث برفق:

«ليس هناك داعٍ لكل هذا الشرح، فقد فهمت ذلك من البداية».

وظلت ليا وهي تتمتم بينها وبين نفسها ان تعرف لماذا جعلها تقدم اعتذارها مع انه هو قصدها. وشعرت ان النقاش سيكون عقيماً لان الخطأ في الاصل خطأها.

كظمت ليا غيظها، وانتقلت الى موضوع اقل حساسية:

«لماذا كنت مسافراً الى اوستن؟».

شرح لها الوضع ببعض التفصيل:

«توجد قرب المنطقة التي ازورها بعض مناجم الفيروز. وانا اتعامل مباشرة مع المشرفين عليها فاشتري الحجارة التي اريدها لاستعمالها في صنع المجوهرات».

صمتت قليلاً وهي تحاول ان تتذكر اذا كان لوين قد اشار في احدى رسائله الى مناجم الفيروز:

«لم اكن اعرف ان هنالك مناجم فيروز في تلك المنطقة».

«يوجد احتياطي من عرق الفيروز في منطقة تمتد من وسط الولاية مباشرة، وهي تبدأ بالتحديد في منطقة جبال باتل عبر اوستن. ثم تنحرف الى الشمال الغربي عند مدينة تونوبا. واذا رسمت العرق على الخريطة لظهر بشكل حرف L».

«وطالما فكرت ان معظم الفيروز يستخرج من ولاية اريزونا».

«ولا شك ان اريزونا تنتج كمية لا بأس بها من الفيروز. ولكنه نتاج جانبي لصناعة النحاس وتعدينه».

ثم اطلقت اصابعه بلطف شعرها الرطب الطويل من ياقة المعطف، وارخته على ظهرها.

وقال:

«اظن ان الوقت حان لننام قليلاً. فسيكون نهار الغد يوماً طويلاً».

الحقيقة ان ليا لم ترد التوقف عن الحديث لانه يصرف تفكيرها عن حادث التحطم، فهي تريد ان تشغل تفكيرها بامور اخرى.

«واعتقد انك على صواب».

وتنهدت مرغمة وهي تضيف:

«مرة اخرى».

وشعرت بتثاقل جفونها حين سألت:

«كم الساعة الآن؟».

«اظن انها تقارب منتصف الليل. هل انت مرتاحة هكذا؟».

هزت رأسها وهي تدنيه من صدره قائلة:

«اجل. تصبح على خير».

«تصبحين على خير».

خيّم الصمت على رغم قصف الرعد ووميض البرق ووقع المطر.

ولم يكن هناك اي من اصوات السيارات او الناس او اضواء الشارع التي كانت تشع عبر نافذتها، فتقضي على انوارها.

وشعرت بصلابة الارض وقساوتها تحت جسمها، وبانتظام حركة صدر

رايلي الذي وفر وسادة لرأسها، وبضربات قلبه المنتظمة قرب اذنها. لو اختلف مجرى الاحداث، لكانت الليلة بجوار لوين، ولنامت في سرير غريب. بيد ان غرابته لم تكن لتوازي جزءاً من غرابة سريرها الحالي. ثم تجمّد حلقها عندما فكرت لو سارت الامور في الاتجاه المعاكس، لكان غراندي قد بقي على قيد الحياة.

وهمست بصوت خفيض مختنق:

«لو اننا اقلعنا باكراً لكنا سبقنا العاصفة ووصلنا الى اوستن».

عندئذ شعرت ليا بذبذبات صوت رايلي الخفيض والرزين والخالي من العاطفة يخترق اذنها:

«وكنت مع شقيقك وكنت مع اصدقائي وكان غراندي ما زال حياً».

وانهمرت الدموع على وجنتيها وهي تقر بان رايلي مصيب ايضاً. غير ان ذلك لم يهون عليها قبول الامر. وطرفت اهدابها للاحتفاظ بالدموع المنسابة.

استيقظت خلال الليل من رقادها المزعج والمتعب على صوت هدير هائل زلزل الارض تحتها. فتحركت وهي تفتح عينيها بعبوس. وهمست بحيرة:

«ما هذا؟».

حاولت ان ترفع نفسها معتمدة على كوعها. الا ان الذراع التي طوقتها، ضغطت عليها ودفعت بيد اخرى رأسها الى صدر رايلي.

واجاب رايلي بهدوء:

«لا تقلقي، فان ما تسمعينه ليس شيئاً. عودي الى النوم».

اطاعت ليا الامر لانها لم تستيقظ فعلاً على نحو كامل، ولان عضلاتها المتعبة ابت القيام باي حركة. وقالت في نفسها ربما كان هذا صوت رعد.

٣- حياة القفار

لم يكن الصوت، الذي سمعته ليا، رعداً.

سطعت شمس الصباح في عينيها. الا ان تورمها لم يمنعها من رؤية اكمة ارتفعت من تجمع شظايا الصخور والحجارة امامها. الانهيار دفن الطائرة بالكامل.

ورأت في منطقة عالية من المنحدر الصخري فتحة سوداء هي في الحقيقة مدخل منجم تلحدت في وسطه شجرة ضخمة. وقد دفع المطر المنهمر في الليلة الماضية البقايا الرخوة من المنجم الى اسفل المنحدر. وتذكرت ليا تحذير رايلي من حدوث ذلك. ولو بقيا في الطائرة، لكانا حبسا داخلها، او اختنقا من انقاض الحصباء.

مع الصباح احست بوجع في عظامها من النوم على الارض الصلبة، وتشنج في عضلاتها لشدة التصاقها برايلي حتى تدفأ من حرارة جسمه. ورأت ان عنادها امر بسيط امام اختفاء الطائرة تحت هذا الجبل الضخم من الركام.

وراقبت رايلي بهدوء وهو يشق طريقه فوق الركام بانتباه. ومع كل خطوة من خطواته تحركت الارض تحت قدميه محدثة انهيارات صغيرة اندفع معها الحصى بعيداً. ثم توقف رايلي لينحني ويرفع الصخر بعيداً بحذر شديد.

وظهر جسم ابيض اخذ حجمه يزداد كبراً لما استعمل رايلي ذراعه اليسرى كحاجز لدفع الحصى المتدفق ليغطي الفتحة المكشوفة. واستعمل يده الطليقة ليتخلص من مزيد من الصخر ببطء شديد وصبر.

وكان هدفه مخزن الامتعة في مقدم الطائرة المنهار حيث لوى الحطام الباب وفتحه جزئياً عند اسفله. وشاهدت ليا رايلي وهو يجهد

مستعملا يده الوحيدة الطليقة ليفتح القسم الباقي من الباب.

ولما انفتح المزلاج، رفع الباب بسرعة ليستعمله بدل ذراعه في صد الحجارة المتدافعة. ثم دخل الطائرة واخرج حقيبته وحقيبتي ليا بسرعة.

وتراقصت الحجارة على جانبي الباب مهددة متوعدة. ودفع الحقائب على الصخور المتدحرجة لتحملها بعيداً عن الطائرة. وحبست ليا انفاسها وهي تراقبه ينزل الباب على مهل خصوصاً وانه كلما ضاقت فتحة الباب كلما زاد اندفاع الصخور.

ارتفعت فوق رايلي مجموعة من الصخور لم تحدث انهياراً عندما انزل الباب، الذي سرعان ما غطته الحجارة. ثم استدار ونزل المنحدر نحو الامتعة ببطء وهو يجلس القرفصاء.

ولما وقف ثانية على الارض الصلبة اطلقت ليا الانفاس التي حبستها في زفرة ارتياح. وحمل رايلي الحقائب الثلاث، وسار نحوها وقد وقفت بعيداً في مأمن من الخطر.

وقال مبتسماً:

«الآن يمكننا ان نغير ملابسنا».

وافقت ليا:

«لا يمكنني الانتظار».

على رغم ان ملابسها كانت قد جفت نسبياً، فانها كانت لا تزال تشعر برطوبتها على جلدها.

ثم وضع حقيبتها وحقيبة ادوات زينتها على الارض امامها، وهو يقول:

«هل احضرت بنطالا في هذه الحقيبة؟».

اجابت:

«اجل».

«يحسن بك ان ترتديه وان تنتعلي حذاء بلا كعب».

ونظرت ليا حولها، فرأت ان الاشجار الصحراوية الخفيضة كانت

نادرة في المنحدر الجبلي. ولم تشاهد صخراً كبيراً يمكنها ان تستعمله كستارة لتبدل ملابسها خلفها.

قالت:

«اين يمكنني ان ابدل ملابسي؟».

التمعت عيناه سخرية وهو يجيب بلا مبالاة:

«اينما تشائين».

قالت ليا:

«اريد ان اختلي في مكان خاص. فانا لا اريد ان اتعرى امام جمهور من المتفرجين».

وانحنى ليفتح حقيبته وهو يقول بعدم اكتراث:

«اظن ان عليك ان ترحفي* خلف احدى هذه الشجيرات. فانا لا ارغب بالتفرج عليك بقدر ما ارغب في تبديل ملابسي».

اطبقت ليا شفتيها. ثم ركعت امام حقيبتها وهي تضع ذراعها الجريح حول خصرها.

وحاذرت ان تصدمها عرضاً وهي ترفع غطاء حقيبتها لتنقب فيها عن ملابس داخلية جديدة وبنطال. وتمتمت بتشنج:

«لم اقصد ان تجلس وتحملق بي وانا اخلع ملابسي».

رد رايلي مستهزئاً:

«آه. وماذا قصدت اذن؟».

اجابت وهي تلف ملابسها في شكل كرة وتضع فوقها حذاء بلا اكعاب:

«عن رغبة في بعض العزلة».

اقترح متحدياً:

«يمكنك ان تتمتعي بكل العزلة التي توفرها لنا بيئتنا البدائية».

فصاحت وهي تغلق باب الحقيبة بعنف:

«اشكرك».

ونهضت مرتبكة وهي تحمل حزمة ملابسها. ومشت نحو دغلة

كثيفة نسبياً من نبات الناعمة الشبيه بالنعناع، وهي ترفع انفها عالياً. ثم شتمت نفسها في سرّها لانها ارتكبت الخطأ ثانية.

فهو، على عكس ما ظنت، لم يقصد الاساءة بملاحظته المازحة بان تبدل ملابسها اين شاءت. الا انها استاءت وهبت تدافع عن حشمتها بدون سبب، وكان انفجارها بلا مبرر. ونتيجة ذلك ظهرت بمظهر الاحمق الجاهل.

وتنهدت بغضب متسائلة لماذا تخطىء دائماً.

وتوقفت عندما سمعت رايلي يناديها:

«آنسة تالبوت».

ترددت وهي تستدير نحوه. وشعرت بضرورة الاعتذار. لكنها لم تكن قد هدأت لتقدم اعتذاراً مخلصاً. وسألت بالغضب:

«ماذا؟».

«اود ان افحص ذراعك قبل ان تلبسي بلوزة نظيفة».

فوافقت. ثم تابعت سيرها.

وبعد ان خلعت ليا ملابسها المبللة، ولبست ملابسها الداخلية وبنطالها النظيف، تذكرت ان رايلي اراد فحص جرحها قبل ان تخلع بلوزتها المبللة لان كمها المقصوص يسهل عليه معاينة الجرح. فوقعت في مأزق: فمن جهة، لا بد لرايلي ان يفحصها قبل ان ترتدي بلوزتها النظيفة، ويراها في سترتها الداخلية. وهذا امر لا ترضاه علماً بأن ملابسها الداخلية تغطي من جسمها قسماً اكبر من القسم الذي تغطيه سترة الاستحمام. اما من الجهة الثانية، فعليها ان تلبس بلوزتها المبللة فوق ثيابها النظيفة. وهذا امر تأباه وتشمئز منه.

فتمتمت بينها وبين نفسها: «كثيراً ما توقعين نفسك في مآزق حرجة يا ليا تالبوت».

التقطت بلوزتها النظيفة الرقطة بخطوط صفراء زيتونية اللون، ولفّت بها صدرها وذراعها. وضغطت عليها بقوة بيدها اليمنى. وخرجت من وراء الجب وهي تبتسم بسخرية بعد ان اقتنعت انها

غطت القسم الاعلى من جسمها بحشمة.

كان نسيم الصباح بارداً وقد ملأه المطر الذي هطل في الليلة الماضية بأريج نبات الناعمة. فارتجفت كتفا ليا العاريتان. ولم يكن بامكانها ان ترد ذلك الى برودة الطقس وحده او الى قشعريرة الخجل والرهبة والخوف.

وقف رايلي في بقعة الارض الخالية من الاشجار حيث قضيا الليل، وقد ادار ظهره. وفيما زرّر قميصه البيضاء المتدلية فوق بنطال الجينز الكحلي، تلألأت اشعة الشمس في شعره الاسود. وسألته ليا:

«هل يمكنك ان تعاين ذراعي الآن يا سيد سميث؟».

نظر فوق كتفه، واستدار وهو في مكانه من دون ان يكمل تزرير قميصه. ثم انحنى على صندوق الاسعافات الاولية وهو يرد بلطف:

«اجل. سوف افحصه».

سارت ليا نحوه وهي ترفع رأسها بكبرياء لتخفي خفقات قلبها المتسارعة في حين نظر ببطء الى الاجزاء العليا من ملابسها الداخلية. فعلت الحمرة وجنتيها. وقالت ليا بمرارة وضيق:

«اسأت فهم ما قصدته اذ نسيت قصة الكم».

قال، وقد التمعت عيناه بشرر اسود، لم تفهم ليا لما كان يعني السخرية منها ام لا:

«ادركت ذلك، فحاولت ان افهمك قصدي، لكني خشيت ان تشني هجوماً جديداً عليّ قبل ان اكمل كلامي».

خفضت ليا ذقنها وهي تجيب:

«آسفة».

اما رايلي، فازاح الخرق الملتصقة بذراعها ليتفحص جرحها وقد قبل اعتذارها من دون تعليق. وتأملت انامله وهي تتفحص جرحها بلطف. فرماها بنظرة حادة وهو يسألها:

«هل يؤلمك الجرح؟».

اجابت وهي تعض على شفتها السفلى:

«وطيعة».

قال متسائلاً:

«انه يبدو نظيفاً. فهل تشعرين بوجود شيء داخله؟ قطعة زجاج مثلاً؟».

هزت رأسها مجيبة:

«كلا. انه يؤلمني فقط».

«سوف اضع عليه ضمادة جديدة».

وراقبته وهو يبدل الضمادة بمهارة. وركزت نظرها على عنقه، وخصوصاً على تجويف حلقه حيث ارتاحت كتلة الفيروز. ثم انحدر نظرها الى الجزء الاعلى المفتوح من قميصه حيث الشعر صدره البرونزي وكأنه صدر تمثال. ومرت بضع ثوان قبل ان تفطن الى انه انتهى من عمله. فاحمرت خجلاً وحياء.

وقالت وهي تضغط باصابعها على بلوزتها وهو يحدق الى وجهها:

«شكراً».

ردّ وهو يميل رأسه بشيء من السخرية:

«العفو. لا داعي للشكر».

وادار ظهره لها وهو يتابع حديثه ضاحكاً:

«والآن يمكنك ان ترتدي بلوزتك شرط ان تعديني بانك لن تنظري اليّ وانا اضع قميصي تحت البنطال».

فوعدته ليا وهي تضحك بهدوء. ثم ادارت ظهرها له. وادخلت ذراعها المصابة في كم بلوزتها بتروٍ. ثم استدارت لتلتقط الكم الاخر. وفيما كانت تزرر الزر الأخير، سألها رايلي:

«هل انتهيت؟».

قالت:

«اجل. الآن يمكنك ان تدير وجهك نحوي».

وارتسمت على وجهها ابتسامة طبيعية فيما استدار وهو في مكانه وقد التمعت عيناه الخضراوان دفئاً وعاطفة. وقال وهو ينحني ليلتقط

بزة الجينز الملقاة على الحقائب:
«هل تشعرين بتحسن؟».
اجابت ليا:
«لا شك ان ارتداء الثياب النظيفة والجافة هو بحدّ ذاته تحسن كبير. الا انني سأشعر بتحسن افضل عندما اتناول فطوري».
قال:
«في الصفيحة الموضوعة هناك بعض البسكويت الرقيق. وهذا افضل ما يمكنني ان اقدمه لك حتى استطيع جمع بعض الحطب لاشعل ناراً».
ثم حذرها:
«لا تحتوي القنينة على الكثير من الماء. فاستعمليه بحكمة واتياد».
اجابت وهي تجثم بجانب الصفيحة وترفع غطاءها:
«سأفعل».
ووجدت ان الصفيحة تحتوي على قطع البسكويت الرقيقة، وعلى علب من الاطعمة المجففة، التي يجب ان تمزج بالماء قبل تناولها، وعلى بعض قطع من لحم البقر المجفف. فقالت:
«لم اكن اعرف ان الطائرات المستأجرة تحمل على متنها صناديق طعام».
قال رايلي:
«انهم لا يفعلون عادة. غير ان غرادي كان يؤمن بالخرافات».
فعبست ليا:
«يؤمن بالخرافات؟ ماذا تعني؟».
اوضح قصده:
«لقد خدم غرادي في الحرب الكورية كطيّار في طائرات الاستطلاع الخفيفة حيث اعتبرت صناديق الطعام، التي يستعملها الطيارون عند اسقاط طائراتهم للبقاء على قيد الحياة، عنصراً اساسياً

من اجهزة الطائرة. وذات يوم نسي غرادي ان يضع هذا الصندوق في طائرته، فاصيبت بنيران المدافع المضادة وسقطت في منطقة غابات كثيفة حيث كسر رجله. ولحسن حظه انه سقط في ارض صديقة غير انهم لم يعثروا عليه الا بعد ثلاثة ايام. واقسم انه كاد يموت جوعاً ولم يطر بعد ذلك من دون ان يحمل معه الصندوق. ولم يصب ثانية. وبعد تسريحه من الخدمة، عاد الى الولايات المتحدة حيث حصل على وظيفة طيار. وظلّ يحمل الصندوق كتعويذة تقيه السقوط وتؤكد حسن حظه».
وامسكت بورقة البلاستيك الشفافة بعد ان فتحتها جزئياً، وشعرت بانقباض شهيتها.
وهمست بحزن:
«لم يفلح الصندوق في جلب الحظ له هذه المرة».
لم يعلّق رايلي على عبارتها، بل قال:
«لقد الححت له مرة ان هذه المأكولات المجففة لن تنفعه في هذه المنطقة الصحراوية حيث يندر وجود الماء. فاجابني انه لم يضطر الى استعمالها وانها بالتالي لن تفسد مع مرور الزمن».
وببرودة نقلت ليا نظرها الى تلة الصخور والتراب التي غطت الطائرة. وطرحت على رايلي سؤالاً كانت تعرف جوابه:
«الا يمكننا ان نسحبه من هناك؟».
اجاب:
«كلا. ان ذلك يحتاج رجالاً وآليات وطريقة خاصة في صدّ الحجارة والصخور عن الطائرة».
ثم عاد رايلي بالحديث الى وضعهما:
«اما الآن فانا ذاهب لجمع بعض الحطب لاشعل ناراً تشير الى مكاننا. فابقي انت هنا حيث ستكونين بخير».
وافقت ليا وهي ما تزال تركز نظرها على التلة التي تشبه القبر. «انتبه لاي طائرة استطلاع علماً بانني لا اتوقع ان تصلنا مع هذا

الصباح.

ذكرها صوته الثابت بأن همها الاول هو خلاصها لان ليس بامكانها مساعدة الطيّار. فحدقت اليه بعمق ونظرت ثانية الى لفة قطع البسكويت الرقيقة الصغيرة التي حملتها في يدها. وقالت:

«سأكمل».

ثم اضاف:

«ولما احتجت إليّ، اصرخي».

وابتسم مطمئناً لها التي اطرقت، ثم انطلق متسلقاً المنحدر باتجاه النجم المهجور. وشقّ بخطواته العريضة الرشيقة ممراً جديداً متجنباً بذلك الارض المهتزة بفعل الانهيار. وراقبته لها حتى اختفى في اعلى المنحدر الصخري.

وفتحت لها حزمة البسكويت الرقيق عاذرة تمزيق الورقة التي تلفها. وتناولت قطعة جافة يشبه طعمها مذاق الطبشور. ثم لفت القطع الباقية. ولما رفعت القنينة لتشرب، تذكرت قول رايلي بأن الماء نادرة وثمينة.

وبدت مترددة وهي تتناول جرعة صغيرة لتساعدها على ابتلاع قطعة البسكويت الرقيقة. ثم سدت القنينة وهي تفكر انه من سخرية القدر ان يشعر الانسان بالظمأ عندما تندر المياه. وبدت لها القنينة المملوءة تقريباً قطرة ماء صغيرة في هذه الارض القاحلة.

ثم وضعت القنينة جانباً، ودنت من حقيبة الزينة. فدهنت وجهها بمسحوق معطر، ثم سرّحت شعرها واسدلته فوق كتفيها كستارة حريرية كستنائية اللون. وشعرت انها عادت قوية وصحيحة الجسم.

وتفحصت الجهة الغربية من الفضاء بعينيها البندقيتين اللامعتين، فلم تر حتى سحابة واحدة تعلو زرقة السماء اذ كانت سحب العاصفة التي هبت في الليلة الماضية قد اختفت كلياً.

ورأت عصفوراً صغيراً يطير متكاسلاً فوق الوادي الصحراوي في

حين لمحت دخان طائرة ينفث شريط دخان خفيف في الافق البعيد. وبدت الصحراء ممتدة الى ما لا نهاية. ولاحظت بخوف انها لم تبين اثراً بشرياً، بناية كان ام شارعاً.

وطغى عليها شعور حازم بالوحدة واقلقها صمت الصحراء ضجيجاً. فماذا لو لم تعثر السلطات عليها؟ الا ان لها اقتصت والفة قبل ان تمتلكها هذا الشعور وتسحقها. وقالت في نفسها انها ليست ذاهبة في رحلة استجمام، بل هناك من يبحث عنها ولن تبقى تائهة في هذه القفار الوعرة الى الابد.

ثم تطلعت الى المنحدر الصخري حيث رأت رايلي آخر مرة. وتمنت لو يعود سريعاً. وتذكرت نصيحته بأن تناديه اذا احتاجت اليه. وشعرت انها في تلك اللحظة كانت بحاجة لأن تعرف اذا كان ما زال هناك. الا انها كبحت جماح رغبتها في مناداته.

كان العمل هو الحل. فطردها بدون حراك اطلق خيالها بعيداً. ولا شك ان فرق الاستطلاع ستجدهما. غير ان المسألة هي مسألة وقت. وفي تلك الاثناء افضل ما تفعله هو ان تقوم بعمل معين حتى يرجع رايلي. فامسكت لها بذراعها الجريحة، ونظرت حولها بحثاً عن عمل. ووقع نظرها على ثيابها المبللة التي كانت قد القتها على حقيبتها ورأت انها لن تجف وهي مكومة. فحملت بلوزتها الموضوعة فوق الكومة وذهبت بها الى شجيرة تعلقها وتمددها لتجف. ثم رجعت لتأخذ قطعة اخرى. وتعمدت اضاعة الوقت في تبسيط التجاعيد وتحديد زوايا القطع الاربع فوق الشجيرة مما اطال مدة العمل.

ولما انتهت من نشر ثيابها، بدأت تنشر ملابس رايلي. وفيما كانت تنظم الثمام برنه البنية، سمعت حجراً يتدحرج في المنحدر الجبلي خلفها. واستدارت، فرأت رايلي يهبط المنحدر وهو يحمل بعض قطع الحطب، وكان معظمها من الشجرة التي تسد مدخل المنجم.

حييّه والسعادة والارتياح يرنان في صوتها:

«مرحباً. أراك وجدت بعض الحطب».

أجاب مبتسماً وقد زال عن وجهه قناع التحفظ:

«يوجد المزيد من الحطب في أعلى المنحدر، وهذا يبعث على الاطمئنان في الوقت الحاضر. لكنني وجدت شيئاً آخر».

كبست ليا أنفاسها وهي تسأل:

«ماذا؟».

وشعرت أنه سعيد بما وجد، ولذلك أشرقت عيناه فرحاً وطفحت ملامحه الجذابة بشراً. ولعله رأى طريقاً في منقلب الجبل الثاني.

ألقى رايلي الحطب أرضاً ثم نظر الى الجبل وهو يقول:

«وجدت ماء. فعلى الجانب الشرقي توجد طبقة صخر بارزة تشبه الاناء، تمتد تحت غطاء صخري صغير. وقد امتلأ نصفه من المطر الذي هطل ليلة أمس».

ومع أنه لم يعثر على معلم من معالم المدنية، الا ان لسان حالها قال ان اكتشافه للماء كان مساوياً لذلك. ولذا سألت:

«هل هو صالح للشرب؟».

وأشرقت عيناه بابتسامة تحاكي ابتسامة شفتيه:

«انه من ماء المطر».

ضحكت قائلة:

«أود لو أشرب القنينة بكاملها احتفاء باكتشافك».

وركع رايلي بجانب كومة الحطب وهو يشير الى القنينة قائلاً:

«هيا. فأنت اليوم في ضيافتي».

أجابت وهي تهز كتفيها:

«لم أعد أشعر بالظمأ اذ عرفت ان بامكاني ان أشرب».

والتقط رايلي لوحاً رقيقاً من الخشب ليسوّي به الأرض ويعد دائرة للنار، وقال:

«هل يمكنك ان تحضري لي بعض الحجارة لبناء دائرة للنار؟ التقطي بعض الحجارة المتناثرة عند منطقة الانهيار».

تأخرت ليا في جمع الحجارة المتوسطة الحجم لبناء دائرة خارجية

لحفظ النار، وذلك بسبب ألم ذراعها. ولما فرغ رايلي من تسوية الأرض، سحب السكين من جيبه وأخذ يقطع الخشب للنار. فجمع كومة من شظايا الخشب وسط الدائرة.

وسأل رايلي:

«هل عندك بعض الورق؟».

أجابت ليا:

«بعض الأوراق في حقيبة أدوات زينتي».

قال:

«هذا رائع».

وبينما مضت ليا لتجلب الأوراق، أخرج من جيب سترته الداخلي علبة ثقاب.

ثم أعطته ليا ورقة رقيقة بيضاء، وراقبته وهو يدخلها تحت شظايا الخشب ويخرج عود ثقاب ليفركه بجانب العلبة. واحتضن لهيب الثقاب بيده فيما أدنى العود من الورقة الرقيقة التي اسودّت قبل أن تشتعل. عندئذ نفخ في النار نفخة خفيفة.

ورعى رايلي النار حتى لا تنطفىء. وقال وهو ينظر الى ليا مبتسماً:

«اذا كان هناك حاجة الى ضمانة عند اشعال النار، فهي انه مهما كان اتجاه الريح لحظة اشعالها، فان اتجاهه سيتغير بعد دقيقة من اشتعالها ليذري الرماد على من أشعلها».

ضحكت من صحة ملاحظته وقالت:

«أهذه حكمة هندية؟».

أجاب:

«طبعاً».

ولما بدأت الأخشاب الصغيرة تشتعل أضاف رايلي قطعاً كبيرة من الحطب في شكل هرم حول النار وفوقها.

وهبت نسمات خفيفة. ثم نظرت حولها لترى أجمات نبات الناعمة الجافة المنتشرة حول جانب الجبل. وشاهدت بضع أشجار

صخيرة من انواع مختلفة مغروسة فوق منحدراته. وسألت:
«هل هناك احتمال ان يشتعل العشب من حولنا؟».
ولم تحاول ان تتصور الفزع والذعر الذي سيدب فيهما اذا كان عليهما الهرب من مثل هذا الحريق. واجاب رايلي:
«احتمال ضئيل. فدائرة النار ستحفظ اللهب من الانتشار خصوصاً ان الريح ليست قوية. والغريب ان النار نادراً ما تمتد في الصحراء علماً بان نباتاتها جافة وقابلة للاحتراق بسرعة».
مالت ليا برأسها جانباً، ثم دفعت شعرها الامامي خلف اذنها وهي تقول:
«لماذا؟».
فاوضح:
«لانها جافة، كما ارجح. فهناك قليل من الرطوبة في الصحراء مما يمنع النباتات من النمو قرب بعضها. وجذور النباتات هنا كبيرة وعميقة لتتمكن من امتصاص كل قطرة ماء. وهي بذلك تخنق اي نبتة جديدة تحاول النمو. والمسافة بين النباتات تمنع اي حريق من ان يشب ويمتد».
، ثم جلس القرفصاء ينتظر اشتعال كومة الحطب الهرمية الشكل، عندئذ فقط فهمت ليا معنى قوله في الليلة الماضية ان اشعال النار عملية بطيئة اذا تمت من دون الاستعانة بالبنزين او اي وقود آخر سريع الاحتراق.
ثم استأنف حديثه:
«اما الآن، وقد وجدنا الماء فبامكاننا ان نخلط بعض هذه الاطعمة المجففة».
فتحت ليا الصفيحة واخذت تنظر الى العلب قائلة:
«لنرَ ما فيها. هنا بعض حساء من لحم البقر. ولكن، اي اناء نستعمل لنغليه؟».
اجاب:

«يوجد فوق المنحدر بعض القطع المعدنية الملتوية التي تطايرت من حطام الطائرة. وربما امكننا استعمال احداها كقدر مؤقتة».
وقالت وهي تقف:
«دعني أرى».
بيد انه اشار عليها بالجلوس. وقال:
«ارى انه من الأفضل ان افحصها انا بنفسي. فلا اريد ان تجرحي نفسك عرضاً باطراف المعدن الحادة».
ثم شبك قطعتي خشب كبيرتين بجانب بعضهما بعد ان تأكد انه ترك فسحة في اسفلهما ليسمح بدخول تيار الهواء.
لم تبد ليا معارضة وهي تراه يقف برشاقة لانها احست بارتباك وانزعاج فيما كانت تجمع الحجارة لبناء دائرة النار بيد واحدة.
وفي غضون دقائق رجع رايلي وهو يحمل قطعة معدنية ملتوية. ثم انتزع حجرين من دائرة النار واستعمل احدهما كمطرقة والآخر بمثابة سطح مساند. وطرق الاطراف الحادة على المحيط الخارجي للقدر. ثم قلب القدر واضعاً فوهتها على الصخرة وبسط قعرها. ولما استقامت جوانبها، فحصها للحظة ثم القى بها الى ليا. ورفع جبينه بسخرية وهو يسأل:
«اتظنين يا حضرة الطاهية ان هذه القدر المؤقتة ستنفع؟».
اومأت ليا برأسها وهي تقول بمرح:
«اذن، انا هي الطاهية، اليس كذلك؟».
ورنت من عينيه الخضراوين الداكنتين النفاذة ماكرة حين قال:
«ان الطهي عمل من اعمال زوجة الهندي. اليس كذلك؟».
ابتسمت ليا وهي تهز رأسها فيما تعجبت في سرها من انها بتفوان على الدم الهندي الذي يجري في عروقه بعد ملاحظتها العنيفة والساخرة والغبية في الليلة الماضية.
وقالت:
«لقد سمعت انه كذلك».

وأراها القدر لتفحصها وهو يسأل:

«اذن، هل تنفع القدر؟».

«اظن ذلك. ولكن، هل يمكنك ان تعطيني القنينة؟ فسأمزج الحساء فيها تعمل على اضرام النار».

قطرت ليا بعض الماء في القدر وغسلتها اولاً. ثم جففتها ببعض الورق الرقيق. وحددت مقدار الماء الذي تتطلبه القدر. ثم اضافت الحساء المجفف.

ثم نظرت الى رايلي وقد علت وجهها ابتسامة مفاجئة لتقول:

«وماذا احرك المزيج؟ وبعد، كيف يمكننا ان نأكل الطعام من دون ملعقة؟».

ناولها سكينه وقصلها بحد:

«هناك السكين. اظن انه من الافضل ان نأكل اللحم والبطاطا بواسطة السكين ثم نشرب السائل».

تحركت المواد الجافة في الماء وهي تعلق:

«واظن اننا سنستعمل القدر كطبق جماعي».

مرّت قرابة ساعة قبل ان يتمكن رايلي من جمع بعض جمرات مشتعلة من قلب النار لتسخين الحساء. ثم وضع القدر على علو بضعة سنتيمترات من النار وقد دعمها ببضع احجار مسطحة.

لم يمرّ وقت طويل قبل ان يغلي السائل وتنبعث منه رائحة شهية.

وفي الوقت نفسه صنع رايلي صحنين قليلي العمق من معدن الطائرة موضحاً ان ليس بامكانها احتساء السائل من القدر لشدة حرارة جوانبها. ولما نضج الحساء، اخذ قميصه التي نشرتها ليا على الشجيرة وثناها ليرفع بها المقلاة عن النار.

وصب الحساء في الصحنين بانتباه، وقدم صحناً الى ليا. ورفضت ليا استعمال سكينه لانها فضلت ان تغرف القطع الكبيرة بقطعة بسكويت رقيقة. ولم تشب الملعقتان المؤقتتان جدارتهما رغم انهما اديتا الغرض المنشود.

ولما فرغا من وجبتهما، اخرج رايلي من جيب قميصه علبة تبغ وسحب سيكارة ذات فلتر، وقدمها الى ليا:

«هل ترغبين بسيكارة؟».

لبت ليا. وانحنت نحوه لتشعل السيكارة بطرف قضيب مشتعل.

دخنا سيكارتيهما في هدوء وصمت. وانهت ليا سيكارتها اولاً. ورمت عقبها في نار المخيم المتأججة وتنهدت:

«اظن انني سأغسل الصحون».

فوافق رايلي:

«حسناً تفعلين. فاني اظن اننا سنستعملها هذا المساء».

شدّ تحليقه انتباهها الى السماء الخالية من اي طائرة استطلاع.

«الرمل سينظفها اكثر من الماء».

وابتعدت ليا نظرها عن السماء لتمسك بالقدر وتضع فيها حفنة صغيرة من الرمل. ولما فرغت من فركها، صبّت فيها بعض الماء لتغسل الحصى. ثم انتقلت الى تنظيف الصحنين. عندئذ افرغ رايلي القنينة في القدر. فعبست:

«ولماذا فعلت هذا؟».

اجاب:

«اني ذاهب لاملأ القنينة من الحوض. واثناء ذهابي ارغب ان تحتفظي ببعض الماء لتصبيه على النار اذا رأيت طائرة استطلاع».

اعترضت:

«لكن النار ستنطفئ».

الا ان رايلي اشار:

«انه سيرسل دخاناً كثيفاً، وقد يحالفنا الحظ ساعتئذ بان يرانا الطيار ويأتي للاستطلاع».

تعلقت مبتسمة:

«آه، لقد فهمت. انها حيلة الدخان الهندية القديمة».

فغمز بعينيه. ومشى نحو المنحدر وهو يقول:
«اجل. اجل».
وتابعت ليا تنظيف الصحنين. ثم غسلتهما بجرعتي ماء، وجففتهما بعض الورق الرقيق. وبعد ان انجزت عملها هذا، تفحصت الملابس التي نشرتها على الشجيرات فوجدتها قد جفّت. فطوت ملابسها ووضعتها في حقيبتها. وبعد ان فرغت من ذلك العمل الذي استغرق بعض الوقت لاستعمالها يدها اليسرى جزئياً، لم يكن رايلي قد رجع. حينئذ كانت حرارة الشمس قد بدأت تشتدّ. فزادت بعض الحطب على النار وجلست بعيداً عن اللهيب وهي تنتظر.
اخيراً رأته يقف على المنحدر، ثم يهبط حاملا القنينة بيد ولوح خشب يبلغ طوله متراً وبعض المتر.
فصاحت ليا وهو لا يزال في منتصف الطريق:
«كنت افكر بالامر الذي اعاقك. واری انك ذهبت في طلب المزيد من الوقود».
اجاب:
«كلا. لن استعمل هذا اللوح للوقود».
ثم وضع القنينة بجانب صفيحة المعلبات مضيفاً:
«سوف اشق هذا اللوح الى لوحين اجعل منهما عمودي مظلة. لان الحرّ سيزداد ولا بد ان نستظل منه».
وبعد ان شق اللوح لوحين مستعملا السكين الصغيرة كوتد، حدد طرفي كل لوح. وكان طرفا البطانية مزودين بحلقات معدنية. فثبت زاويتين من البطانية في العمودين بينما ثبت الحلقتين الاخريين على الأرض واضعاً فوقهما الصخور.
واعلن وهو ينحني ليدخل مظلّته فيما اومأ لليا كي تنضم اليه:
«واذا هبّت ريح قوية، فستنقلب المظلة غير انها ستقينا من حر الشمس حتى يحدث شيء مثل هذا».
انتقلت بحماسة الى الظل بعد ان لفحتها اشعة الشمس المحرقة.

لما رايلي، فامسك عصا التقطها من كومة الحطب وبدأ يعمل سكينه فيها. فسألته بفضول:
«وماذا تفعل الآن؟».
«افكر في صنع ملعقة».
فتمددت ليا على ظهرها مستعملة ذراعها كوسادة بينما راحت تراقب رايلي وهو ينزع قشرة الخشب الخارجية بسكينه. كان لوقع نشر الخشب الرتيب اثر التنويم عليها. فسرعان ما تثاقلت جفون ليا.
ولما حاولت ان تنفض التعب والنعاس عنها بعيداً، قال رايلي:
«ولماذا لا تحاولين ان تستريحي؟ فسأراقب انا طائرات الاستطلاع بنفسي».
توقفت عن مغالبة النعاس، واغمضت عينيها قائلة:
«اظن انني سأفعل».

٤ - أمل يضيع

رقدت ليا في الهاجرة. ثم استيقظت على صوت الايقاع الذي خفت على رتابته. وكان رايلي لا يزال جالساً في ظل الخيمة وهو يحفر بسكينه عصا صارت اشبه بملعقة خشبية.

وطرفت عينيها لتطرد النعاس منها. ثم نهضت محاولة الجلوس وقد جعلت من ذراعيها رافعة لجسمها. لكنها ما لبثت ان صرخت صرخة حادة من فرط الألم والوخز في ذراعها اليسرى وتحولت بثقلها الى ذراعها اليمنى سريعاً. وتمتمت:

«ان هذا لجنون».

تحدق اليها رايلي بعينيه الخضراوين فاحصاً:

«هل تؤلمك ذراعك كثيراً؟».

اجابت:

«فقط عندما افعل شيئاً مثل هذا».

ثم جلست وقد حضنت ذراعها اليسرى في حجرها فيما بدأ الألم بالتراجع. وشعرت بجفاف في فمها. وقطبت جبينها ونظرت حولها قائلة:

«اين هي القنينة؟ اريد ان اشرب».

«انها وراءك في الظل».

استدارت ليا قليلاً لتناول القنينة. ثم رفعت السدادة عنها وتناولت جرعة كبيرة غيرت بها طعم فمها اذ كان الماء رطباً ولذيذاً برغم سخونته.

وسألت:

«اين اصبحت في صنع ملعقتك؟».

توقف رايلي عن العمل فور سماعه سؤالها، ورفع الملعقة ليريها

اياها. وقالت:

«يا لله كم تشبه الملعقة».

فاستأنف السكين عمله. ورأت ذبابة قرب رأس ليا مما جعلها ترفع ناظريها الى السماء قائلة:

«الم يظهر دليل واحد على طائرة الاستطلاع؟».

اجاب بالنفي:

«كلا».

وبعد بضع دقائق من الصمت وضع القطعة الخشبية الشبيهة بالملعقة على الأرض. ثم اغمد نصل سكينه ورده الى جيبه. وقال:

«سنحتاج مزيداً من الحطب الليلة، ولن اغيب طويلاً».

بينما صعد رايلي المنحدر انسلت ليا من المظلة ووقفت لتمد رجليها وتقوس ظهرها للتخلص من التشنج الناتج عن الاستلقاء على الأرض الصلبة. فرأت جسماً اسود يطير في السماء فوق رأسها [illegible] الى الوراء.

[illegible] لها صقراً يحوم. [illegible] فوراً الى الأرض [illegible] نظرها [illegible] المنحدر. [illegible] لأن الصحراء والحطام [illegible] الطائرة وجثة [illegible] كلها. واستدارت نحو الأفق الغربي تتأمل [illegible] وهي تضع يديها امام عينيها لتحميها من لمعان شمس الأصيل. ولم تلمح شيئاً. فخطر لها ان فرق الانقاذ وسعت دائرة بحثها الآن.

ومن المرجح ان يكون والداها قد امتلأا اشمئزازاً بضياعها، وكذلك شقيقها. «آه يا لوي، ما هذه الهدية المزعجة في عيد ميلادك».

واغرورقت عيناها بالدمع لدى التفكير بآلام اسرتها ونكدها. دوى في الأجواء صوت انفجار ظنته ليا للوهلة الأولى صوت اشتعال الوقود في محرك السيارة. لكنها سرعان ما ادركت سخف فكرتها لعدم وجود سيارات وطرق هناك. اذن لا بد ان يكون طلقة بندقية. وبسرعة تذكرت المسدس الذي حمله رايلي في حزام بنطاله. علام

يمكن ان يكون قد اطلق النار؟ هل تكون حية؟ وتملكها خوف شديد الا من المرجح ان تكون المنطقة مليئة بالأفاعي ذوات الاجراس السامة.

وقالت:

«ماذا لو لسعته الحية؟».

وبدا ذلك ممكناً خصوصاً انها عبرت عن فكرها بصوت عال.

ثم استدارت رافعة نظرها الى المنحدر، وقد اتسعت عيناها البندقيتا اللون وتفحصتا المنحدر الجبلي الذي اختفى عنده رايلي وصاحت:

«رايلي، رايلي».

اجابها فوراً بهدوء ووضوح:

«لا تقلقي. كل شيء على ما يرام».

وما هي الا لحظات حتى ظهر عند حافة المنحدر بقامته الطويلة المسمرة وقد لفه نوع من الكبرياء بكتفاته. كانت ركبتاها تنحنيان بالركوع عند رؤيته وقد التصقت قميصه بصدره البارز العضلات نتيجة العرق، والتمع شعره الأسود القاتم في اشعة الشمس، وقالت مرتعشة:

«لقد سمعت طلقة بندقية».

رفع ذراعه ليريها ارنباً تدلى من يده بلا حراك واوضح بارتجال:

«سنصنع منه عشاءنا هذه الليلة. سأحضر فور ان اجمع الحطب».

واختفى ثانية. لقد بدا في وقفته رجلاً في غاية الجاذبية. وسبق ان انتبهت لها لهذا الأمر، غير انه لم يشدها بقوة كما حدث منذ ثوان. وفجأة بدأت تفكر في المرأة في حياة رايلي، واذا كانت هناك امرأة معينة تستأثر باهتمامه.

وتذكرت الذراعين القويتين اللتين احتضنتاها للنوم خلال الليلة الماضية، وبجسمه الطويل الصلب المستلقي بجانبها. وشعرت

بالغيرة من المرأة... اذا كانت هناك من امرأة... ثم هزت رأسها بسخرية وهي تشعر انها تحب.

استدارت مبتعدة عن المنحدر وهي تتراجع الى مقرها، وركعت بجانب صندوق المؤونة محاولة انصب جهدها التفكير بما يجب تغذيته مع الأرنب الذي اصطاده رايلي. ووضعت كيساً من الخضار المجففة جانباً، ثم اضافت علبة من المرق الى الماء في القدر.

ولما هبط رايلي المنحدر بعد بضع دقائق وهو يحمل الحطب على ذراعه، كانت لما لا تزال تحرك المرق محاولة تسريع امتصاصه للماء. ولم تقدر الا ان تنظر الى رايلي برغبة لم تعرفها مثلها من قبل:

وسمعت الى تجاهل شعورها وهي تقول فيما نظرت الى الحيوان الميت بلا حراك:

«أمل الا تطلب مني تنظيف هذا الارنب. فليست لدي ولو فكرة بسيطة عن سلخه».

ابتسم رايلي بمكر:

«الا يمكنك ان تراقبيني».

واحست الخبث في نظراته، فركزت بصرها من جديد على المرق وهي تقول:

«كلا. شكراً. اعد الأرنب وانا اتكفل بباقي العشاء».

ظلت تصب اهتمامها على عملها. ومع انها لم تحس بالدوار لرؤية دم الأرنب، فإنها لم تسر تنظر الجيفة الصغيرة وهي تنظف.

«عندما سمعت صوت الطلقة، تراءى لي ان افعى ذات اجراس قد عضتك».

اجاب رايلي موضحاً:

«لا تظهر الأفاعي ذوات الاجراس في هذا الحر الشديد. وهي تخرج للصيد قبل شروق الشمس وبعد غروبها بقليل. وحذير بالذكر ان الأفاعي ذوات الاجراس جبانة لا تهاجم احداً. ولا يمكن ان يخشاها الانسان الا اذا داس احداها بدون انتباه».

علقت بسخرية:

«الذي حذرتني من التجوال».

وضحك رايلي ضحكة منخفضة طربت ليا لعذوبتها. ونظرت خلسة الى ملامحه الواضحة والدقيقة. واعجبت كثيراً بنحافتها وقوتها.

بعد ان تناولا لحم الأرنب المشوي، جلسا يراقبان الشمس البرتقالية اللون تتمايل في الأفق فوقهما. واكتست الجهة الغربية من الفضاء بلون قرمزي براق فيما بدت سلسلة الجبال البعيدة وكأنها تشتعل اذ اغتسلت باشعة الشمس المحرقة.

ولم تشاهد ليا الا الفراغ في الصحراء حيث بدت هي ورايلي البشريين الوحيدين في الأرض باسرها. ولم تطرف عيناها وهي تنظر الى الشمس الغاربة. وسألت:

«هل تظن ان طائرات الاستطلاع ستعثر علينا غداً؟».

«هذا محتمل».

وسرت قشعريرة خفيفة في عروقها. ثم استدارت قائلة:

«وماذا لو لم يعثروا علينا يا رايلي؟ ماذا لو تهنا هنا الى الأبد؟».

التقت نظراتهما بعض الوقت فيما تغلغلت نظرة رايلي الى اعماق عينيها البندقيتي اللون. ثم ابتسم ابتسامة خفيفة وهو يهز رأسه:

«لن نبقى هنا، بل سنخرج».

قالت:

«طبعاً».

وتنهدت وهي توبخ نفسها في سرها لأنها استسلمت للحظة خوف عابرة.

لم تمض على سقوط طائرتهما غير اربع وعشرين ساعة فقط. وهذا وقت قصير لا يخشى معه من عدم العثور عليهما. انه يوم واحد، رغم انه كان اطول من دهر.

ووقف رايلي. ثم اضاف قطعتي حطب الى النار المتلاشية وانزل

البرتقالية عن المظلة لينشراها. وتخلص من طبقة الحرارة العليا حيث يرقدان مستمتعاً بنور الشمس الغاربة.

برد الهواء فور زوال الشمس. فاقتربت ليا من النار الصغيرة وحدقت الى لهيبها الذي لم يقض على قشعريرتها ولما بدأت ترتجف، اقترح رايلي ان يرقدا. وانتشر فوقهما بساط من النجوم البراقة.

كان اليوم الثاني اطول من الأول الذي شغلا الوقت فيه بتخليص ما امكنهما من الطائرة وايجاد الماء واضرام النار واختراع ادوات الطعام والطهي واقامة المظلة. وحيث ان الضرورة لم تقتض عمل اي من هذه الأشياء في اليوم الثاني، شعرت ليا بالوقت يجثم ثقيلاً على صدرها.

واحست ليا بالحر يشتد والعرق يتصبب منها ويلذع جلدها كالأبر. وظلت طوال النهار تتفحص السماء بحثاً عن طائرات الاستطلاع وانهك جمود الانتظار اعصابها رغم انه لم يؤثر على الظاهر من رباطة جأش رايلي وهدوئه ورصانته.

وفجأة لمحت جسماً يلمع، فانتصبت واقفة وقد ملأتها الحماسة وهي تشير الى بريق الشمس على اجنحة معدنية وتقول:

«انظر هناك. انها طائرة. اليس كذلك؟».

وقف بجانبها يفحص السماء بنظرته الثاقبة حتى رأى هو ايضاً طائرة تطير ببطء في البعيد، وقال:

«اجل. انها طائرة».

وقالت وهي تستدير لتلتقط القنينة وتطفىء النار كي تنبعث منها اشارة دخانية تكشف موضعهما:

«سوف نجعلهم يعرفون اننا هنا».

اوقفها رايلي قابضاً على ساعدها باصابعه القوية. وقال:

«انها بعيدة جداً الآن».

وانتظرت ليا وقد تسمرت نظراتها على الطائرة فيما تضرعت بحرارة ان تعود نحوهما. غير انها تابعت سيرها حتى اختفت. وفي

محاولة لاخفاء خيبة املها وامارات يأسها قالت بصوت خفيض:

«انها ستتراجع».

لكنها لم تفعل.

ولم تنم ليا جيداً في تلك الليلة اذ لم توفر الأرض الصلبة فراشاً وثيراً لعضلاتها التالفة والمتشنجة بفعل النوم على فراش قاس في الليلتين الماضيتين. اما رايلي فنام بسهولة وراحة ثيران الاعصاب. ولم يستيقظ سوى مرة او مرتين ليخرج من تحت الغطاء ويضيف بعض الحطب من كومة قريبة.

واستيقظت ليا من نومها المتقطع لتكتشف ان الصبح قد انبلج. تذمرت من قلة نومها المريح. ووضعت رأسها على ذراع رايلي لتتطلع باشمئزاز الى السماء الزرقاء المتألقة نوراً. ونبضت ذراعها اليسرى بألم شديد. فاستدارت نحوه محاولة ان تضع ذراعها في وضع اكثر راحة واقل ايلاماً.

ولما انقلبت الى جنبها، ركزت نظراتها على وجهه. واكتنفها شعور بالكراهية للطريقة الهادئة التي ينام بها. وشعرت برغبة في ايقاظه وحرمانه لذة النوم التي لم تتمتع بها. وبينما فكرت جدياً في تنفيذ رغبتها، تفتحت اهدابه الكثيفة جزئياً. وقال بصوت نشيط وهادىء اثار اشمئزاز ليا:

«صباح الخير».

التمع الغضب في عينيها، وقالت وهي تشد طرف البطانية لتخلصها من قبضته:

«وهل هو صباح خير فعلاً؟ انني لا اجد فيه اي علامة على الخير».

ولما ارخى قبضته، رمت بالبطانية جانباً واندفعت واقفة بارتباك. ووقف بجانبها بهدوء وسهولة لم يظهر معها اي اثر لوجع او الم في عضلاته او مفاصله، وقال مازحاً:

«ارى انك لم تنامي جيداً».

تمتمت متهكمة:

«وان قولك لا يعبر عن الحقيقة. ولكنك، في اي حال، نمت نوماً عميقاً يكفي لاراحتنا نحن الاثنين».

اجاب مبتسماً:

«لا اظن ذلك. فقد احسست شيئاً يتململ في فراشي طوال الليل».

فصدقت اليه رافعة شعرها الكستنائي المجعد عن وجهها. وبدت مستاءة تصب جام غضبها، ولم تتمالك نفسها رغم ادراكها بانها اصبحت في حقه. واجابت:

«من حسن حظك ان ذلك الشيء لم يعضك».

ثم ربضت بجانب حقيبتها تنقب فيها عن بلوزة نظيفة تبدل بها بلوزتها المتجعدة. واقسمت في سرها ان ترميه بأي شيء، اذا ضحك علانية من جوابها الفظ.

لم يعلق رايلي على الموضوع اذ احس بأن صبرها كاد ينفد. وقال:

«هل يمكن ان تغلي بعض الماء كي احلق ذقني؟».

غلبت لهجة الأمر على كلامه. وجاء رد فعل ليا ازاءه فجاً متسرعاً اذ قالت:

«اغلِ ماءك بنفسك».

ثم لامت سوء تصرفها تجاهه لانه ليس مسؤولاً عن عدم نومها. والتقت نظراتها المليئة بالندم بنظراته الجامدة اللاذعة. فتمتمت:

«لا بأس. سأفعل».

ولم تستطع ان تكبت انفعالها اذ اضافت:

«فهذا في اي حال عمل الزوجة، اليس كذلك؟».

ولاحت لها قسمات وجهه بانها تستفزه اذ سأل:

«هل تحاولين الدخول في شجار؟».

تنهدت ليا بغيظ:

«كلا».

واستدار في مكانه. ثم سار نحو الأيكة وهو يقول:

«حسناً تفعلين».

انتزعت بضع جمرات بعد ان اضافت مزيداً من الحطب الى النار. ووضعت قدر الماء على اربع صخور صغيرة فوق الجمرات المحرقة. وبعد ان انهت عملها، خلعت بلوزتها وهي تشعر بألم شديد وبحرق في ذراعها اليسرى. وادخلتها بعناية في كم البلوزة الصفراء النظيفة. وكانت تزرر اخر زر عندما رجع رايلي. فالقت نظرة على القدر، فوجدت الماء يغلي. وقالت ببرودة:

«لقد غلا ماؤك».

رد بالبرودة نفسها:

«اشكرك».

ورفع القدر عن النار وهو يمسكها بمنديل اخرجه من حقيبته. ثم توقف ليسألها:

«هل ترغبين في ان تغتسلي اولاً؟».

هزت ليا رأسها سلباً. ثم فتحت حقيبة زينتها واخرجت قارورة تحوي مسحوقاً منظفاً لتنظف به وجهها. واسندت المرآة الملصقة على غطاء الحقيبة على زاوية ملائمة بحيث تمكنت ليا من مشاهدة طيفها وطيف رايلي معاً.

كان مشهد رجل يحلق ذقنه مثيراً للفضول. فقد قبضت اصابع لوحتها الشمس على الموسى التي اخترق نصلها رغوة الصابون وقطع شعر الذقن. ومع كل ضربة نصل ظهر مزيد من الجلد الأسمر تحت سالفيه الى ان تعرت ملامحه الدقيقة المغرية. وفيما غسل الصابون عن وجهه قالت ليا:

«أعتقد ان الهنود لم يكونوا يحلقون ذقونهم».

رد رايلي بنبرة جافة وعدم اكتراث وهو يجفف الموسى ويضعها في حقيبته:

«لم يكونوا يحلقون فعلاً اذ كانوا ينزعون شعور وجوههم».

فصاحت ليا من الألم لدى سماع كلامه. واضاف باللهجة

نفسها:

«هل تؤلمك ذراعك اليوم؟».

ردت وهي تهز احدى كتفيها متحاشية ابداء جرحها المحرق في الذراع الأخرى:

«قليلاً».

فتقدم منها قائلاً:

«دعيني افحصها».

رفضت ليا اقتراحه فوراً بسبب جفائه ونتيجة غضبها من قلة النوم:

«لا داعي لأن آلامها تدل أنها ستبرأ».

وتردد رايلي قليلاً وهو يفكر:

«في اي حال، لم يبق لدينا كثير من الضمادات في الصندوق. ولذلك افضل ان تغيري كل يومين اذا كان جرحك لا يؤلمك كثيراً».

فكررت عبارتها:

«لقد قلت انها آلام الشفاء».

وقبل تعليلها بابتسامة خفيفة:

«حسناً. اني ذاهب لاجمع بعض الحطب. كلي حتى اعود».

«لست جائعة».

اجابها بصراحة:

«سيجعلك الطعام تشعرين بالتحسن».

وغضبت ليا من كلامه الانتقادي:

«تقصد انه سيزيد من انفعالي. ولكني في اي حال لست جائعة».

واعقب عبارتها الاستفزازية لحظة من الصمت والتوتر. وقال رايلي بلهجة هادئة تحذيرية:

«ادرك انك لم تنامي جيداً في الليلة الماضية. غير اني اقترح ان لا تصبي جام غضبك عليّ يا آنسة تالبوت».

راقبت ليا رايلي وهو يقصد النهر بخطوات رشيقة. وتنهدت

بحزن وهي تتذكر مناداته لها بالآنسة تالبوت بدل ليا. واعترفت انها كانت تستحق الاذلال والعقاب. لكن ذلك لم يخفف من قساوة العقاب وصرامته والألم الناتج عنه.

ثم تريثت قليلاً. وسرحت شعرها حتى انسدل مثل ملاءة من حرير براق. وخلعت حذاءها ونفضت منه التراب. وبعد ان خلعت جواربها، قطبت جبينها لمنظر التراب المتجمع بين اصابع رجليها وعلى باطن قدميها الساخنتين والناضحتين بالعرق.

وجذبتها قدر الماء الساخن القريبة منها وقد طفت على سطحها فقاعات من معجون الحلاقة. وترددت للحظة فقط. ولكنها قررت انه من الحمق ارتداء جوارب نظيفة من دون غسل رجليها.

وسارت على الأرض الوعرة بقدميها العاريتين لتحضر المنديل الذي مدده رايلي على احدى الشجيرات ليجف. ثم بدأت تغسل قدميها وتمسحهما بالمنديل مستعينة بلوح صابون صغير اخرجته من حقيبة زينتها. ثم ازالت الصابون عنها بالماء الذي صبته بالقنينة، وجففتها بطرف بلوزتها المجعدة، التي سبق ان خلعتها. وصبت الماء القذر على الرمال.

ورأت ان غسل قدميها انعشها كما ينعشها الاستحمام. فقررت ان تبقى ساعة او اكثر في حوض الاستحمام فور انقاذها. وارتدت جواربها النظيفة بعد ان نفضت التراب عن حذائها مجدداً.

وما كادت ليا تنتعل حذاءها، حتى اكبت تصغي بانتباه للتعرف على مصدر الصوت. ولم تستطع تحديد اتجاه الصوت الذي بدأ يتعالى.

ولما ادركت انه ازيز محرك طائرة، اتسعت حدقتاها. ونظرت فوراً الى السماء. فدهشت لرؤية طائرة قريبة من موقعهما تطير باتجاههما. ولعل نسيم الشرق ابعد صوتها فلم تسمعه ليا الا عندما اقتربت منهما.

ونادت رايلي بحماسة وهي تمسك القنينة تصب ما فيها من الماء

على النار. ولم يبق منها الا القليل من الماء الذي يحدث وشيشاً طفيفاً ويعش ليا اقله.

«أيتها المجنونة. ماذا استعملت كل الماء لغسل قدميك؟!».

واقترب هدير الطائرة ليجذب نظر ليا الى السماء. فلوحت لها لتعلم الطائرة باتجاه الشرق بأن افراد طاقمها لم يشاهدوا موقعهما. وصاحت وهي تركض خلف ظل الطائرة ملوحة بذراعيها بعصبية:

«انا هنا. انا هنا. هنا على الأرض».

هبط رايلي المنحدر بسرعة محدثاً انهياراً بسيطاً. وصاح:

«صبي الماء على النار».

وتسمرت ليا في مكانها وهي تجيب:

«لا يوجد ماء. فقد استعملته كله».

تشنجت ملامحه لدى سماعه قولها. غير انه لم ينبس ببنت شفة. وتابع سيره الرشيق حتى بلغ الأرض عند اسفل المنحدر حيث توقف والتقط البطانية الحمراء التي تدثرا بها في الليلتين الماضيتين.

وامر ليا:

«لوحي بها في الهواء رافعة الجانب المغطى بالالومينيوم الى فوقه».

واطاعت بينما احست رايلي يجثم بجانب حقيبة زينتها فيما راقبت الطائرة وهي تبتعد عنهما. ثم وقف رايلي بجانبها وهو يمسك المرآة المستطيلة التي انتزعها من غطاء حقيبة زينتها.

وفيما لوحت ليا بالبطانية حتى كادت ذراعها تتقطع. لوح رايلي المرآة في الشمس محاولاً تركيز الضوء البراق على الطائرة التي لم تخفف من سرعتها. وصاحت ليا:

«عودي».

وتدلت ذراعها بلا حراك على جنبها اذ عجزت عن رفع البطانية مرة جديدة فيما استلقت ذراعها الجريحة على خصرها.

وغابت الطائرة عن الانظار. واندفعت بين اهداب ليا دمعة تبعتها ثانية وثالثة حتى سال الدمع على وجنتيها وبلل شفتيها. وقالت

بخفة:

«انهم لم يروناه.

وارتعشت نفسها فيما نظرت الى رايلي وقد وقف وقفة غضب واشمئزاز ملقياً بيديه على وركيه ينظر في الفراغ حيث كانت الطائرة تحلق. ثم استدار والتفت عيناه الخضراوان الغاضبتان بعينيها لحظة قبل ان يرجع الى موضع النار.

تبعته ليا وهي ما تزال تمسك البطانية باصابعها وتجرها خلفها على الأرض. وقالت:

«آسفة يا رايلي. الحق علي لأني استعملت كل المخزون لغسل قدمي. وقد اضعته من دون تفكير».

فرد بصوت جاف:

«رجليك؟».

ونطقت نظرته المعبرة عما لم تقله كلماته.

دافعت عن نفسها بحجة واهية:

«كانت قدماي متسختين».

ثم القى رايلي قطع الحطب القليلة الباقية على النار. وكان صمته ابلغ من اي ادانة شفوية. واخيراً لم يعد بوسع ليا ان تحتمل فانفجرت غاضبة كالبركان. وصرخت:

«لماذا لا تقول شيئاً؟ لماذا لا تصرخ في وجهي وتقول كم كان عملك اخرق. فنحن الاثنين نعرف انه اخرق. لماذا لا تقول ذلك؟ اغضب او افعل اي شيء، ولا تستمر في وضع الحطب على النار كأن شيئاً لم يكن».

وقف رايلي ومسح يديه بسرواله. وقال بهدوء وقد ارتسمت على فمه تكشيرة حادة، وخلف وجهه قناع من البرودة:

«لن يجدي ذلك نفعاً. سأذهب الآن لأملأ القنينة وسأعود بها مع بعض الحطب».

ولما اختفى وراء المنحدر، سقطت على ركبتيها خائرة القوى يائسة. وارخت قبضتها عن البطانية. فتمددت بجانبها وقد تلألأ جانب المغطى بالالومينيوم تحت اشعة الشمس. وقد أرادت لو انها تدفن رأسها بين ذراعيها وتبكي ندماً على حماقتها. ولكنها لم تجرؤ لأنها توقعت عودة الطائرة. ولم ترد ان تفاقمها كما فعلت في المرة الأولى.

حبست دموعها فيما جفت وجنتيها وحدقت الى السماء. واجهدت اذنيها في محاولة لسماع ازيز الطائرة، لكنها لم تسمع سوى صمت الصحراء الجبلية الى ان اعلنت دحرجة الحجارة عودة رايلي.

وبعد ان القى رايلي حمله من الحطب على بعد بضعة امتار من النار، اعطى القنينة لليا قائلاً:

«اشربي».

نظرت الى القنينة كأنها سم. وشعرت بالحرارة والتعب والظمأ. لكنها لم ترغب في جرعة من الماء التي قد يتطلبها منها بالغ ظمأها.

ورفضت بهدوء وصرامة:

«كلا».

ارتسم الغيظ على شفتي رايلي وهو يقول:

«جرعة واحدة لن تقصر في شيء. اشربي».

اطاعت مرغمة. ورشفت بعض الماء. ثم غرغرت به فمها قبل ان تبتلعه. وبللت شفتيها بلسانها فيما اعادت القنينة الى رايلي. ادركت انه يراقبها. الا انها لم تستطع ان تنظر في عينيه الفاحصتين. ووضع رايلي القنينة في ظل كومة الحطب. ومن دون ان يتكلم مشى ليلتقط البطانية الملقاة على الأرض بجانب ليا. وابتسمت وهي تفكر عما سيفعله بالبطانية. ثم رأته يقيم المظلة.

واتسعت ابتسامتها وهي تقول:

«الن نحتاج البطانية لنلوح بها للطائرة؟».

لم يتوقف رايلي عن عمله وهو يجيب:

«من السهل انزالها عن المظلة في ثوان. لكنها ستؤدي خدمة اعظم وتقينا من الشمس الى حين عودة الطائرة».

ونظرت ليا الى النار المتأججة وقد انبعث منها دخان رقيق اختفى في هواء الصحراء النقي بسرعة فاسحاً المجال امام موجات اللهب بالتراقص فوق دائرة النار. وقالت ليا بهدوء: «لقد حلقت الطائرة فوقنا مباشرة تقريباً ولم اسمع هديرها الا عندما صارت على مقربة مني. فلماذا لم يقدروا ان يشاهدونا؟».

قال رايلي وهو يشد آخر ركن من المظلة:

«هذا يرجع الى سببين. الأول هو طيران الطائرة باتجاه معاكس للشمس مما اعاق رؤية افراد الطاقم. اما السبب الثاني، فيتلخص في بحثهم عن حطام طائرة».

ثم اشار برأسه الى المنحدر:

«وطائرتنا مدفونة تحت هذا الركام من الحجارة».

وتنهدت وهي تنظر الى السماء:

«هذا كله خطأي. لقد كان بالامكان ان يروا اشارة الدخان».

علّق رايلي بصرامة:

«كفي عن الشعور بالذنب».

اعترضت ليا:

«لا اشعر بالذنب».

«بل. انك تشعرين بالذنب علماً بأن ذلك لن يغير شيئاً».

اجابت:

«انا لم اقل سيتغير».

«انني لتكف عن ذكر ما حدث. ولتستعد للقاء الطائرة اذا عادت».

وتوقفت ليا عند امره.

ودفعتها فجة الى سؤاله:

«هل تظن انها سترجع؟».

اجاب: بلهجة لم تعبر عما يدور في خلده.

«لست ادري».

٥- قرار الرحيل

غمّت السماء غيمة بيضاء احاطتها الشمس بهالة ذهبية وارسلت من ورائها اشعتها لتلوّح الارض المغطاة بنبات الناعمة.

وبلل العرق قميص ليا، فالتصقت بجلدها. وتمالملم الم ذراعها خصوصاً بعد ان اجهدت نفسها بتلويح البطانية للطائرة في الصباح.

ووضعت يدها اليمنى على جبهتها لبضع ثوان. ثم رفعت رأسها وهي تدفع شعرها عن وجهها بعيداً بيدها. ومكثت ليا ورايلي النهار طوله ينتظران الطائرة التي لم تعد.

ورفعت عينيها الحائرتين الى رايلي الذي شرد بافكاره بعيداً وهو يراقب السماء بدقة. وقالت بنبرة تنم عن الخوف الذي تملكها طول النهار:

«هل تظن ان بحثهم عنا سيستمر لفترة طويلة؟».

ولمحت الغرابة في عينيه الخضراوين اللطيفتين وهو ينظر اليها مجيباً:

«من الصعب التكهن بشيء. فتنظيم حملة استطلاع واسعة امر يتطلب كثيراً من المال والوقت. والارجح انهم سيبحثون عنا مدة يومين او ثلاثة قبل ان يطلبوا من طياريهم المحاولين التفتيش عن اثر الحطام فيما يرسلون طائرة استطلاع او اثنتين».

كانت معرفة الحقيقة امراً مرّاً خصوصاً ان احتمال ضياعهما بضعة ايام اخرى في الصحراء وارد. وادركت ليا انها لن تستطيع التفكير في هذا الامر من دون ان تلوم نفسها، وان رايلي اصاب اذ قال ان ذلك لن يحل المشكلة.

لم تشعر برغبة لتناول الطعام. ولولا حاجتها لشيء منه لما مضغت بضع قطع من اللحم المقدد بزبدة على الغداء. وتلك الحاجة هي

نفسها التي دفعتها الى طهي وجبة العشاء، العمل الذي انساها ورطتها مؤقتاً.

بعد مرور ثلاثة ايام على ضياعهما، قلت انواع المأكولات المجففة في حوزتها على نحو كبير. وبقيت بين العلبات القليلة من صنف شهي نسبياً. اثناء ذلك لمحت بطرف عينيها رابل وقد جثم قرب الحقائب. ودفعها فضولها للاستدارة قليلاً لترى ماذا كان يفعل. فدهشت اذ رأته فتح حقيبتها واخذ يقلب محتوياتها.

فصرخت وهي تسرع نحوه:

«ماذا تظن نفسك تفعل وانت تقلب حقيبتي؟ هذه امتعتي ولا يحق لك ان تنقب فيها».

لم يلتفت اليها، بل وضع كومة من ملابسها الداخلية جانباً. ثم اخذ يتفحص البستها الخارجية. وحاولت ان تنتزع ملابسها من يده وتكومها في الحقيبة. لكنه رفعها وطرحها بعيداً بسرعة لم تقدر معها ان توقفه عن عمله. وصاحت:

«هل سمعت ما قلته لك؟».

اجابها رابل اخيراً:

«اني لا اسرق شيئاً. فانا ابحث عن ملابس تناسبك خلال السير».

قالت له بمرارة وهي تحاول ان تطوي الملابس التي طرحها:

«بامكانك ان تسألني اذ ليس من واجبك ان تقلب امتعتي».

وامسك بنطالاً حنطي اللون وقميصاً طويلة الاكمام يغشاه نقشت عليها خطوط منحرفة ومتقاطعة.

ثم قال:

«سبق ان رأيت ملابس نسائية. فلا داعي لارتباكك وخجلك. وهذه الملابس قد تنفع».

جلست له القرفصاء وهي تتطلع الى وجه رابل الخالي من ارتباك. ثم التمع في ذاكرتها بعض من اقواله السابقة، فقالت وهي تعبس:

«ستنفع؟ لاي شيء؟ وماذا قصدت حين قلت: ملائم للسير؟».

اعلن رابل بهدوء:

«سنرحل».

ثم استدار الى حقيبة زينتها. وسألها وهو يفتح الغطاء:

«هل لديك معجون لدهن الوجه؟».

فلمحت ورفعت القارورة وهي تقول:

«اجل، ماذا تريد معجوناً لدهن الوجه؟».

لم يعد جوابه اهمية عندما ادركت معنى اعلانه السابق. فسألت:

«كيف سنرحل؟».

«سيراً على الاقدام بالطبع».

ثم نظر اليها نظرة سريعة وهو يفتح القارورة وينتزع بعض المعجون بسبابته. ثم فرك ابهامه بسبابته بمهارة وهو يقول:

«سيقي هذا المعجون وجهك الشاحب من الشمس».

قالت له وهي تحدق الى القفر الجبلي الشاسع:

«سيراً على الاقدام؟ لا شك انك جننت».

قال رابل وهو يترك حقيبة الزينة ليفتح حقيبته:

«البقاء هنا جنون اعظم».

علقت له بغضب:

«اعرف انك تظنني مجنونة. لكنني اعلم ايضاً انك عندما تتوه ويبدأ الناس بالبحث عنك، عليك التزام مكان واحد والامتناع عن التحول. ونحن لا نكاد نعرف موقعنا».

واخرج قميصين متسخين من حقيبته. ثم اغلقها. وقال:

«استطيع تحديد موقعنا على نحو تقريبي».

ثم نهض ومشى. فتبعته له وكأنها ظله. وتمتمت:

«هذا رائع. هل تعني اننا في مكان ما من نيفادا؟ لقد كان بامكاني ان اخمن ذلك».

توقف رابل فجأة حتى كادت له تصطدم بظهره العريض. ونظر

اليها نظرة فولاذية.
وقال:
«نحن موجودان على الجانب الشرقي من سلسلة جبال مونيتر. وهذا يعني اننا نبعد حوالى مئة كيلومتر عن اقرب مدينة وذلك في خط مستقيم، او ١٤٥ كيلومتراً سيراً على الاقدام».
ونظرت الى الصحراء المترامية الاطراف، فخيّل اليها انه من المستحيل وجودها في بقعة قريبة من المدينة. وقالت:
«ربما متنا في الطريق».
«ربما متنا هنا».
توقفت لتقول:
«اجل، ولكنّ بقاءنا هنا يعطينا املاً بالخلاص، املاً بالتلويح لطائرة الاستطلاع التالية».
وتمعّن رايلي في قسمات وجهها المجروحة والتي غلب عليها الذعر. وقال:
«ولكن، متى ستمرّ الطائرة التالية؟ غداً؟ بعد غد؟ بعد ثلاثة ايام؟ متى؟».
رفعت يدها كأنها تطرد شبح السؤال عنها، وقالت:
«لست ادري. ولكنها سوف تأتي لأن والدي وزوجي لن يوقفا البحث قبل العثور عليّ. انا اعرف انهما لن يفعلا».
«انا لا اخالفك الرأي. غير ان الوقت هو العامل الحاسم».
«ولماذا؟».
اجاب بصوت منخفض وهدوء قصد بهما الايحاء لها بخطورة الوضع:
«لأنه في خلال ثلاثة او اربعة ايام لن يبقى عندنا طعام او ماء او قوة على الخروج من هنا».
وتطلعت بدهشة الى اعلى المنحدر حيث قال انه وجد الماء. وقالت:

«ولكن...».
اوضح رايلي:
«لقد بدأ الماء الذي عثرت عليه في الحوض الصخري يجف ويتبخر بفعل الحر».
لقد قدّرت ليا بحماقة ان مخزونها من الماء لن ينضب. ونسيت قول رايلي ان الماء في الارض الصحراوية نفيس ونادر.
وانتابها شعور عارم بالضعف والعجز، وقالت:
«كان عليك ان تخبرني».
«ربما».
واظهر عدم اكتراث بمناقشة ما جرى. وهذا لا يختلف عن موقفه عندما علم ان ليا استعملت كل الماء لتغسل قدميها. فبالنسبة اليه ما حدث قد حدث، ولا فائدة من مناقشة الاسباب.
لم تقتنع ليا بالفكرة برغم ادراكها سلامة رأي رايلي:
«لو خرجنا طلباً للنجدة، فكيف نعرف اي طريق نسلك؟».
«سنذهب جنوباً».
عارضت بعناد:
«ولماذا جنوباً، وليس غرباً؟ ونحن طرنا شرقاً عندما انحرفنا عن خط سيرنا. ومن المؤكد ان علينا العودة من حيث اتينا».
تنفس رايلي عميقاً وكان صبره على اسئلتها بدأ ينفد:
«معروف ان سلاسل الجبال هذه تمتد من الشمال الى الجنوب. ولا ادري كم من السلاسل يجب ان نجتاز قبل ان نصل الى طريق عام او مدينة. واكتشاف مسالك سهلة لاجتياز السلاسل يكلف وقتاً كثيراً. فاذا انطلقنا شمالاً، حيث ارى جبالاً عديدة، وجب ان نمشي على القمم اما في الجنوب، فيمتد واد يسهل فيه السير وتزداد فيه السرعة ويقل الوقت».
قالت ليا:
«من الممكن ان نتوه ايضاً».

اكد لها بصوت جاد:

«لن اتوه».

واغاظها اعتداده بنفسه اذ بدا واثقاً كل الثقة بانه على صواب. ولما وجدت ان جميع حججها لم تقنعه، لجأت الى السخرية.

«ويا لي من حمقاء. فلقد نسيت ان في عروقك دماً هندياً. وطبعاً لن تتوه».

تجهمت ملامحه وقال:

«انك على حق».

فادركت ان سخريتها لم تغضبه. فاطبقت شفتيها واطلقت زفرة غاضبة وهي تنظر الى البعيد:

«لا يهمني ما تقول عني. فانا اظن انه ليس علينا مغادرة المكان لان طائرات الاستطلاع قد تعثر علينا في اي وقت».

قال رايلي بهدوء:

«انا مغادرون غداً صباحاً مع خيوط الفجر الاولى».

وارجعت الى رأسها الى الوراء بتحفظ، والتقت نظراتها نظرته الباردة وهي تقول:

«بامكانك ان ترحل وحيداً. لكنني سابقى هنا».

اجاب بغضب:

«لا، لن تبقي».

ردت بشيء من الوقاحة:

«وكيف ستمنعني؟ لا اظن انك قادر على حملي طول الطريق. ومن المؤكد اني لن اذهب معك طوعاً. وهذا يضعنا في مأزق، اليس كذلك؟ انا لا اريد الذهاب. وانت لن ترحل من دوني، وهذا يعني انا سنبقى هنا».

قال وقد بانت نظرته متكاسلة فاحصة:

«انك ترتكبين خطأ جسيماً».

ردت وقد بدت امارات الاعتداد بالنفس عليها هي هذه المرة:

«لا اظن ذلك».

اطرق قليلاً، ثم قال:

«بامكانك ان تبقي هنا، فانا سارحل في الصباح بمفردي».

واتسعت حدقتاها مستغربة:

«ماذا؟».

قال رايلي وقد اشرقت عيناه بالرضى:

«لعل هذا هو الحل الانسب. فبامكاني ان اسرع السير من دونك فيما تبقين هنا للتلويح للطائرة اذا عادت. واذا لم تعد، فلن اكون في غضون ثلاثة ايام قد وصلت الى حيث يمكنني طلب النجدة وارسل اليك احداً ينقذك».

حدقت اليه وكأنها لا تصدق:

«اتعني انك ستتركني... هنا... وحدي؟».

«هذا هو الحل المنطقي الذي يمكننا من الحصول على المساعدة من مصدرين».

ثم توقف متظاهراً بانه يمعن في دراسة الفكرة، واضاف: «سأحمل القنينة معي بينما تحتفظين بالمرق الفائر. وسأترك لك الاطعمة المجففة لانه لن تكون معي ماء اطهوها به. غير اني سآخذ كل لحم البقر المقدد».

وهز كتفيه بلا مبالاة وهو يستدير مبتعداً:

«اذن، يجب ان تبقي هنا».

وعلت شفتيه ابتسامة استغراب كأنه لم يفهم سبب شكها في كلامه. وقال ببساطة:

«احل».

فتمتمت:

«والله، انك ترتكب خطأ جسيماً اذا ظننت انني سابقى هنا واتركك ترحل وحيداً. فان ذهبت سأذهب معك».

واضافت مصرة:

«وسأذهب معك. ولن يمكنك ان تجبرني على البقاء هنا. فأنا لا اكترث اذا كان رأيي عملياً ام لا».

وما كادت تنهي جملتها الأخيرة، حتى عضت على شفتها بغضب اذ تذكرت انها لدقائق معدودة كانت تصرّ انه لن يقدر ان يصطحبها معه في الصباح.

اجاب وهو يتشدق بكلامه:

«واذا كان هذا رأيك، فأظن انك سترافقينني».

وفيما استدار مبتعداً، لمحت ليا المكر في عينيه. وحسبت كأنها تتهمه:

«لقد خدعتني. فأنت لم تقصد ان تتركني هنا بمفردي».

توقف وقد غمر جبينه الرضى. وحدق الى وجهها وهو يقول ساخراً وممازحاً:

«هل ظننت حقاً اني اذهب واخلف زوجتي ورائي؟».

وقلصت ذراعه، ورفعت راحة يدها المفتوحة لتصفعه على فمه. ولم يحاول رايلي ان يلتقط يدها، بل تراجع الى الوراء. فاخطأت هدفها.

ولما مرّت يدها بقرب وجهه، امسك ساعدها وهو يضحك من ثورتها. وحاولت ليا ان تفلت يدها من قبضته الفولاذية. الا ان ذراعها اليسرى لم تسعفها لشدة ألمها. فامسكها بسهولة. وقربتها محاولاتها للتخلص منه اكثر الى صدره الصلب. فضحك ضحكة عميقة. وقالت وهي ترجع رأسها الى الوراء لتنظر اليه ببرودة:

«لا اجد شيئاً مضحكاً».

غابت المتعة من عينيه وهو يتطلع اليها من فوق. وانعكس البريق الذي اضاء عينيه، فتوقفت عن محاولة التحرر من قبضته. وزاد خفقان قلبها عندما لمحته يتأمل ثغرها.

وفرك رسغها بابهامه بينما دفع الشعر عن وجهها بهدوء قبل ان يحضن عنقها بيده، ثم عانقها عناقاً قصيراً...

وفيما تقطعت زفراتها، انفتحت عيناها حزناً لتنظر اليه بتردد.

والتقت عينيه تتفحصان لطفاً ومودة رغم القناع الذي غطاهما. وقال رايلي بهدوء:

«ليا، لقد كنا معاً في كل ما حدث، وسنرحل معاً صباح غد».

واطرقت وهي تقول:

«اجل».

ورفع يده عن عنقها بينما مرّر اصبعه بلطف على وجنتها. ولم تدرك ليا اذا كان يقصد بمعانقته اياها اقناعها بالموافقة من دون جدال.

ومشى رايلي خطوة الى الامام. ومد يده الى جيب قميصه، فاخرج علبة تبغ سحب منها سيكارتين اشعلهما الواحدة تلو الأخرى. واعطى ليا واحدة وهو يقول مبتسماً:

«التدخين احتفالاً بالسلام كالهنود».

بادلته ليا الابتسام وهي تهز رأسها بسخرية متمنية لو تشعر مثله بالهدوء بعد العناق.

كانت يدها لا تزال ترتعش ارتعاشة بسيطة كشفت عن اضطرابها عندما اعطاها السيكارة.

وارتاحت لقرار رحيلهما في صباح اليوم التالي اذ خشيت الوقوع في التجربة اذا استمرا في العيش بضعة ايام اخرى في المخيم، واذا عانقها مرات اخرى. ولا شك ان تعب الرحلة سيضعف احساسها بوجود رفيق مكتمل الرجولة.

ارتفعت بينهما سحابة رقيقة من دخان سيكارة رايلي الذي قال:

«وعندما ننتهي من التدخين يمكن ان تنتقي عيّنة العشاء فيما انظم الامتعة التي سنأخذها معنا صباح غد».

حفلت ساعات النهار الباقية بالنشاط. ولم يكد القمر غير المكتمل يظهر، حتى اعلن رايلي ضرورة ذهابهما الى الفراش باكراً استعداداً للرحلة الطويلة امامهما.

وعندما استلقيا، استغربت ليا عدم مداعبة رايلي لها كما توقعت. وتساءلت اي نوع من الرجال هو. فهو لم يعانقها سوى مرة في ثلاثة

ايام رغم جاذبيتها.

ومع انها لم تعاشر رجالاً اشراراً، فان ايّاً من اصدقائها كان سيتهز الفرصة، خصوصاً ان مثل هذه الظروف تسهّل عليه تحقيق رغبته. اما رايلي، فظلّ هادئاً برغم عزلتهما في الصحراء الجبلية.

لم يتحفظ رايلي في مراودتها عن نفسها بسبب قلة خبرته. فالطريقة التي عانقها بها تدحض هذا الرأي، وهي تذكر انها لمحت اعجابا في عينيه عندما التقيا في قاعة الانتظار في شركة الطيران، وان تجاوبها مع رغبته في العناق اظهر اهتمامها به. اذن، لماذا لم يلب رغبتها؟

تنهدت ليا وهي تلقي ذراعها الجريحة على صدره. وشعرت بسخافتها اذ كان عليها ان تفرح لانها لا تصد مداعباته المتتالية عوض التمني بان يداعبها ولو مرة.

وامرت ليا نفسها بالخلود الى الراحة. فاغمضت جفنيها وسرعان ما غلبها النعاس نظراً الى تقطّع نومها في الليلة الماضية. واحست باصابع قوية تزيح الشعر عن جانبي رأسها، وسمعت رايلي يهتف باصرار:

«قومي، لقد حان الوقت».

رفع رايلي الغطاء عنها. فارتجفت ليا من البرد القارس. واقتربت من كتف رايلي طلباً للدفء فضغطت الاصابع نفسها على فكها. وقال رايلي ممازحاً:

«قلت ان الوقت حان للنهوض».

وتأوهت معترضة فيما نظرت خلال اهدابها الى العالم الخارجي حيث ساد الصمت الذي قطعه صوت النار. وشاهدت الوف النجوم تشع بوهج عظيم في حلكة الليل. فقالت متظلمة:

«ما زال الليل مخيماً».

فطوق رايلي خصرها بذراعه ورفعها فيما حاولت الجلوس. وقال:

«هيا، فان الصباح سيطلع قريباً».

واطلقت ليا اعتراضها وهي تتثاءب:

«هل تريدنا حقاً ان ننهض في هذه الساعة؟».

وامرها رايلي وهو يرفعها عن الفراش:

«وشك ان يطلع الصباح. وعليك ان تغلي الماء حتى نتناول وجبة الشوفان السريعة التالية».

وتمتمت:

«من يشعر بالجوع؟».

«اذا لم تتناولي شيئاً الآن، فانك ستشعرين بالجوع عندما نهبط الجبل».

واقرّت ليا في سرها انه كان مصيباً. لكنها لم ترغب في الطعام الا في بضع ساعات اخرى من النوم. ورغم ذلك امسكت القنينة وصبت بعض الماء في القدر المعدني، وثبتتها على الصخور قرب النار لتغلي.

وشق الاجواء صوت عواء ثعلب بعيد. وشدّت الصيحة الغريبة نظر ليا، التي دنت من النار التماساً للدفء، الى الارض. ورأت القمر قد غمر القفر باشعته الفضية.

وبدأت فقاعات البخار تتشكل في قدر الماء، مما ابعدها عن النار سعياً في اثر الشوفان والطبقين المعدنيين والملعقتين الخشبيتين. ولمحت رايلي يثني البطانية الصلبة في شكل مربع صغير، ويضيفها الى بضع امتعة صغيرة ليحملاها معهما.

ولما غلا الماء، اضافت ليا الشوفان اليه وحركته. وكان من الصعب ان تقدر حاجتها الى الماء من دون الاستعانة بفنجان. غير ان الشوفان هذا الصباح لم يكن شديد السيلان او كثير الكتل. فقد اهتدت الى المزيج الملائم مع آخر وجبة.

صبّت بعض الشوفان في طبقها فيما تركت القسم الاكبر لرايلي. ونادت:

«الفطور جاهز».

وبينما هما يتناولان الفطور، لوحت الشفق حمرة خفيفة علامة

بزوغ الفجر. وأزاحت الحمرة سواد الليل وهي تتحول شعاعاً ذهبياً. ولما أتت ليا غسل الصحون بالرمل والماء، كانت السماء قد اتشحت بأشعة الشمس التي انتصف شروقها. فأعطى رايلي القنينة، قائلاً:

«اشربي كل ما استطعت حتى انعب واملأ القنينة».

وتوقفت بعد أن تناولت بضع جرعات:

«كيف نتدبر أمر الماء في الطريق فهذه القنينة لا تتسع للكثير منه».

وقال وهو ينتظر أن تتابع شربها:

«سنحاول ملأها. وإذا وجدت المياه في أرض الصحراء، فأغلب الظن أنها تتفجر في أسفل الجبل. وعندما ننحدر الى الوادي سنطل على مقربة من منابعها».

ناولته القنينة بعد أن فرغت من الشرب. وما كاد يغيب وراء الجبل حتى لبست الثياب التي قال بأنها صالحة للسير الطويل. وكانت لا تزال تضع ذيل قميصها تحت بنطالها عندما عاد.

قوست عيناه الخضراوان منظرها بسرعة. وقال:

«هل عندك قبعة؟».

وعلا فمه عبوس خفيف عندما هزت رأسها سلباً. وسأل:

«وشاح؟».

«أجل».

ثم نقبت في حقيبتها حتى عثرت على الوشاح الحريري الذهبي والبني وأعطته اياه.

تفحص رايلي الوشاح برهة. وقال:

«انه نافع. ضعيه حول رأسك كالعمامة. فهو سيقي رأسك من لفح الشمس على الأقل».

نفذت ليا الأمر بصعوبة نظراً للألم الشديد في ذراعها. وقالت:

«لا أرى أي نفع لهذا الوشاح».

وأجاب بلهجة جافة:

«لو احرقت الشمس رأسك لما كنت تقولين ذلك؟».

فسألت:

«وماذا عن رأسك؟».

ونظرت اليه لتجده يلف رأسه القاحم السواد بمنديل أزرق كبير. وفاقت لفته لفتها دقة وتنظيماً. ولما انتهى من عمله اصبح بامكان ليا ان تلاحظ الخصال التي ورثها عن اجداده الهنود كنظرة النبالة القاسية التي برزت على نحو لم يسبق له مثيل.

وفتح قارورة المعجون البارد، وقدمها لها قائلاً:

«ادهني وجهك بطبقة كثيفة».

غرفت ليا مقداراً كبيراً فيما تساءلت:

«ولماذا؟».

وأجاب بتأن وهو يقلد عملها:

«ليقي وجهك من لفح الشمس».

وبدا منظر المعجون الأبيض على جلد رايلي الأسمر غريباً. فداعبته:

«ومتى كان يحتاج الهنود الى ما يقيهم حر الشمس؟».

وأجاب رايلي مبتسماً:

«كل الناس بحاجة الى ما يقيهم من الشمس حتى الهنود. ومعروف ان افراد قبيلة من قبائل هنود السهول كانوا يمسحون اجسامهم بزيت عباد الشمس للغرض نفسه».

وراقب رايلي ليا وهي تدهن وجهها بالمعجون. وقال:

«انفك عمّر قليلاً. ولو كنت مكانك لكثفت طبقة المعجون عليه لزيادة درجة الوقاية».

وتألقت ملامحه الدقيقة في ضوء الصباح كأنه تمثال بني. وحيث لم يكن هناك شيء تمسح به ليا المعجون الزائد عن يديها، حذت حذو رايلي، فمرغتهما ببنطالها. وسأل رايلي:

«هل تحتاجين أي شيء آخر من حقائبك؟».

«كلا».

«اذن، سأضع كل الحقائب فوق المنحدر الصخري واعود لنحمل امتعتنا ونرحل».

وبينما اتجه الى المنحدر حيث دفنت الطائرة، لمست ليا مخيط الجرح في ذراعها اليسرى. واحست به يحرقها وكأن سكيناً حامياً ادخلت فيه. وكان الألم قد وصل الى كوعها. ومع ذلك لم تحس بتورّم في ذراعها. وفكّرت لماذا كان لا بدّ ان تطلب من رايلي فحص الجرح.

وحين تذكرت تنبيهه اياها الى قلة الضمادات بالأمس، ورغبته في الانطلاق باكراً للاستفادة من الظلال وطراوتها، اقلعت عن الطلب اليه. وواضح ان الجرح القبيح كان في طور الشفاء.

رجع رايلي الى موقعها بخطوات رشيقة وهو يحدّق اليها قائلاً:

«هل انت مستعدة لحمل الامتعة؟».

هزّت ليا كتفها:

«اجل».

وكان قد جعل من قميصه حزمتين غريبتين توضعان على الكتف. وشدَّ احدهما وزناً الى ظهر ليا. وكانت تحوي البطانية وادوات الطهي. وحمل هو اثقلها وفيها صندوق الاسعافات الاولية وصندوق الاطعمة والفانوس، ثم اعطى ليا احد عمودي المظلة قائلاً:

«خذي».

«ماذا سأفعل به؟ هل اطرد به الافاعي من طريقي؟».

قال وهو يتجه الى النار ليذر الرماد بالعصا الاخرى ويضع الرمل والحصى فوق الجمر:

«استعمليه عصا للسير حتى يساعدك في المنحدرات الجبلية الصعبة. هل انت مستعدة؟».

رفعت الحزمة الى كتفها لتستقرّ في وضع اشدّ ملاءمة وهي تقول ضاحكة:

«اظن ذلك. فانا اشعر الآن اني مثل امرأة هندية تحمل طفلها على ظهرها».

وضحك رايلي ضحكة عذبة فيما اشرقت عيناه اشراقة محيرة.

«لننطلق اذن ايتها المرأة الهندية».

اشارت ليا عليه بعصاها ان يتقدم السيرة. فانطلق بخطوات رشيقة يسهل معها اللحاق به.

اخذت قمة الجبل بالانحدار حيث اندفع امامها ارنب هزيل، وجبينها مُنْحَلّة تستحم في شمس الصباح الساطعة ملوحة بلسانها.

٦- الحمى توقف المسيرة

تصبب العرق جداول من عنق ليا الى صدرها. وقرحت رباطات الحزمة الغريبة كتفيها مما زاد من انزعاجها وألمها.

واوشك الظهر ان يحل فيما اقتربت الشمس اللاذعة من كبد السماء، وارسلت اشعتها المحرقة الى الارض. وتوقفت ليا لتلتقط انفاسها وقد استندت بثقل الى العصا. واحست الألم في مؤخرة رجليها يزداد ازاء الانحدار السحيق امامها. طوال فترة ما قبل الظهر تعرجا في سيرهما وهما ينحدران. وكان لا بد ان ينحدرا مسافة طويلة ايضاً. فصاحت بغضب:

«قل لي بحق السماء كم هي المسافة امامنا؟».

وقف رابل على بعد بضعة امتار منها. ومسح العرق عن وجهه وهو يجول عينيه متجنباً الشمس ناظراً اليها:

«المسافات خادعة ومضللة في الأرض المفتوحة».

تمتمت:

«هل تقول هذا لي؟».

«هل تريدين ان ترتاحي هنا، ام يمكنك الانتظار حتى نبلغ السفح؟».

تساءلت ليا وقد انهكها السير:

«متى يكون ذلك. . . ؟ السنة المقبلة؟ متى استرحنا آخر مرة؟».

منذ انطلقا كانا يستريحان مدة عشر دقائق كل ساعة. فأجاب رابل:

«منذ عشرين دقيقة تقريباً».

خيل الى ليا ان تلك الدقائق كانت اطول من سنة. لكنها صرت على اسنانها، وانحنت معتمدة على عكازها وهي تقول:

«هيا بنا ننحدر».

واستغربت عدم انحدارهما جلوساً على اكفالهما. فالسفح شديد الانحدار. الا ان رابل تعرج في سيره مضاعفاً المسافة ومخففاً من شدة الانحدار.

وتضاعف الألم في ذراعها اليسرى. وزاد تدليها على جنبها من حدته. فادخلت يدها تحت حزام بنطالها مما ساعدها على تخفيف الأوجاع على رغم ارتباكها في السير على الأرض الصخرية المنبسطة.

واحتكت اطراف حذائها العليا بعقبيها. فادركت ليا انها سرعان ما ستصاب بقروح تحت معاكبها. ورفعت الحزمة الى اعلى ظهرها. لكنها عادت فسقطت الى الموضع المتقرح، ومشت بثقل وهي تجر قدميها المتهالكتين.

وركزت نظرها على الأرض امام قدميها، رافعة عينيها من حين الى آخر لتتأكد ان رابل لا يزال يسير امامها. وحاولت ان تتناسى اوجاعها وآلامها وجفاف حلقها وفمها.

لم يعد الوقت يعني لها شيئاً فهي لا تعرف ان كانت قد سارت ساعة او ساعات قبل ان تنبسط الأرض تحت قدميها. وانزل رابل الحزمة عن كتفه.

«سنرتاح هنا بعض ساعات لنتخلص من حر الظهيرة».

لو كانت ليا قوية وقادرة، لابتهجت بالخبر. لكنها سرعان ما جثت على ركبتيها وحررت ذراعها اليمنى المتقرحة وذراعها اليسرى الجريح من الحزمة، ووضعتها برفق على الأرض.

وبلادة راقبت رابل وهو يخرج بعض الماء من القنينة قبل ان يقدمها لها. . . وكان صوت الماء المتدفق بين جنبات فمها رائعاً. وقدرت انها تستطيع ان تشرب القنينة باكملها لشدة ظمأها.

غير ان ظمأها ذكرها باهمية الماء، فاكتفت بجرعة واحدة.

فتح رابل حزمتها ليخرج البطانية. ثم التقط العصا التي القتها ارضاً. اشمأزت من نشاطه اذ ظنت ان باستطاعته ان يجتاز عشر قمم

من دون ان يتعب. وتنهدت لينا هو ينصب المظلة:
ولماذا لا تبدو متعباً ومنهكاً مثلي؟».
ابتسم ابتسامة خفيفة وهو يثبت آخر ركن من المظلة. وقال:
ولعل السبب هو انني لا اقضي خمسة ايام في الاسبوع جالساً خلف المكتب. هيا بنا الى الظل الآن».
زحفت لينا الى الظل بفرح، وتمددت على ظهرها. وتمنت الا لا تتحرك ثانية. وسرعان ما التحق رايلي فوقها وقد التقت عيناها بشيء من السخرية. ولوح لها بقطعة من لحم البقر المقدد قائلاً:
«هيا. كلي هذه!
وضعتها جانباً وهي تقول:
«لا اقوى على تناول شيء».
قال بلهجة آمرة وهو يدخل القطعة بين شفتيها المفتوحتين جزئياً:
«كلي».
اطاعت مرغمة اذ تأكدت انه لن يتركها الا بعد ان تأكل. وما ان انتهت من تناول الطعام، حتى تعب فكاها من المضغ. وتنهدت وهي تطبق اجفانها. وما لبثت ان غفت.
شعرت بيد تهز كتفها. ففتحت عينيها لتشاهد رايلي يجلس القرفصاء على يمينها. ورأت الحزمة مربوطة الى ظهره والقنينة في يده. وقال:
«سننطلق الآن. هيا اشربي حتى اشد حزمتك».
رفعت لينا نفسها وهي تطرد السحب السوداء الكثيفة امام عينيها. ثم تناولت جرعة صغيرة من الماء، وردت القنينة اليه. وبينما انزل رايلي المظلة، ضغطت بيدها على جبهتها المشتعلة. وانتظرت انحسار الدوار.
وقالت في نفسها انها مريضة. وشعرت بانتفاخ في ذراعها اليسرى. لكنها رفضت ان يكون ذلك سبب دوارها ورغبتها في التقيؤ. وشعرت ان الألم يدب في كل مفصل من مفاصلها.

وكانت الشمس قد بدأت رحلتها نحو الغروب. الا ان حرها كان شديداً حتى في اماكن الظل. وعزت لينا ذلك الى ما اصابها من حمى وتعب. ووقفت ببطء حتى لا تعيد سرعة الحركة الدوار الى رأسها.
اما رايلي، فكان قد وضع البطانية في الحزمة ثانية. واستعد لشدها الى ظهر لينا مجدداً. وفيما هو يضعها فوق ظهرها، لمس جرحها عرضاً، فصاحت لينا من شدة الألم. وسألها وهو يفحصها بيقظة وانتباه:
«هل تشعرين بالألم؟».
اجابت وهي تعبس:
«اشعر بألم في كل جسمي».
واعطاها العصا قائلاً:
«هل انت مستعدة لمتابعة السير؟».
فاطرقت. وتقدم رايلي المسيرة ورغم انه مشى ببطء، فان لينا وجدت صعوبة في اللحاق به. ومع كل خطوة خطتها تعاظم الألم في جسمها. ووقف رايلي مرتين منتظراً ان تلحق به.
وشعرت ان اشعة الشمس تحرق جلدها وتشعل ثيابها حتى تصبب العرق منها واشتد وهجها. ولم تقدر على بلع ريقها لجفاف حلقها. واحست ان استراحة الدقائق العشر بعد الساعة الأولى من المسيرة قصيرة للغاية. ولم تطفىء جرعة الماء ظمأها اذ كان حلقها جافاً كرمل الصحراء. وسمعت صوتاً في داخلها يقول انه لن يكون بوسعها السير مسافة اخرى. لكنها تابعت تقدمها بتصميم مجنون.
وخيل اليها انها تسمع شقيقتها لوري يوبخها قائلاً:
«كنت دائماً اقول لك ان لا قدرة للنساء على اللحاق بالرجال».
ورنّ صوته في اعماقها بوضوح جعلها تلوح بيدها امام عينيها لتمنع طيفه من التراقص امامها
وبادلت نظرة رايلي القلقة بابتسامة. وقالت بصوت اجش لا رغبة في اقناعه انما في اقناع نفسها:

«واني بخير».

قال وهو يعطيها حجراً صغيراً:

«ضعي هذه الحصاة في فمك ليسيل لعابك ويخف ظمأك».

ساعد ذلك على ترطيب فمها وهما ينطلقان من جديد. ووهبت لها جهدها للحاق برايلي برغم ترنحها وتمايلها في السير. وزادت النار المتأججة في داخلها وعيها. وأحالت تركيز نظرها على رايلي وقد اعتبرت كتفيه العريضتين شاطئ الأمان الذي تسعى اليه. ودارت الدنيا امام ناظريها وبدأ رايلي يغيب عن عينيها في فترات الدوران الشديد. وشعرت بالخوف فنادت:

«رايلي»

وكانت صرخة استغاثتها اشبه بهمسة مختنقة زادتها الحصى الموضوعة في فمها اختناقاً وتعثرت، فاستندت بثقل على عكازتها لتستعيد توازنها. وقبل ان تنهار حواسها المصابة بالدوار تحت ضغط الحرارة العالية والعطش الشديد. فصاحت ثانية بيأس.

وانهارت قواها وانثنت ركبتاها. غير ان العصا ساعدتها في الحفاظ على انتصاب قامتها. وبكت وهي تطارد سحب السواد لظنها ان رايلي لم يسمع نداءها. فهي قد تخلفت كثيراً عنه.

وغابت العكاز التي تسندها، فبدأت تسقط على مهل. وطوقتها ذراعان قويتان. ومع انها لم تميزه بوضوح، عرفت هاتين الذراعين اللتين امسكتاها اثناء النوم في الليالي الماضية. وتنفست الصعداء وهي تقول:

«رايلي. آسفة لأني لن استطيع مرافقتك بعد الآن».

واسندها الى صدره وهو يطلب اليها:

«لا تتكلمي».

ثم وضع القنينة على شفتيها. غير ان معظم الماء سال على ذقنها لأنها لم تستطع ابتلاعه. ثم بدأ يبعد خصلات شعرها عن وجهها. وسرعان ما توقف ليلمس وجنتها بيده الخشنة ثم تمتم:

«يا الهي. تكاد الحمى تحرقك».

وما لبث ان نزع الحزمة عن ظهرها وبدأ يفك ازرار بلوزتها. واصبح الألم غاية في الشدة عندما اخذ يسحب الكم عن جرحها، وصرخت لها صرخة حادة فيما تعاظم السواد امام عينيها.

واثناء ذلك سمعته يهمس بحدة:

«ايتها الحمقاء! لماذا لم تخبريني ان الألم كان شديداً».

تكلمت بتثاقل:

«انه في طور الشفاء».

«انه في طور الشفاء؟ انه ملتهب».

واغمي عليها وهي تتأوه مستسلمة. ثم احست انها تسبح فوق الأرض متكئة على صدر رايلي ومستندة الى ذراعيه القويتين. وعاد اليها وعيها قليلاً، فادركت ان رايلي كان يحملها

وعاشت في دنيا من احلام رائعة، الا استلقت بجانب بركة ماء رقيقة صفحتها مصقولة كالمرآة وقد نما حول ضفافها عشب اخضر كثيف. وامتدت فوقها اغصان اشجار الصفصاف لتحجب اشعة الشمس القرمزية عند الغروب. وكانت اوراق الاغصان اكثر اخضراراً من عيني رايلي. وتصاعد في الفضاء دخان ضئيل. ثم رطبت جبينها المتقد رطوبة قدسية عذبة. واحست بيد ترفعها وتخلع بلوزتها. فتأوهت احتجاجاً على قطع رؤياها الوديعة الرائعة. وطلب رايلي اليها بلطف:

«ابقي قدر الامكان».

انفتحت اجفانها قليلاً. وركزت عينيها على رأس رايلي الفاحم السواد والشبيه بغصن صفصاف كبير. وهمست:

«اني ارى اجمل حلم في حياتي فهناك اشجار وماء وعشب».

قال رايلي وهو ينزع الضماد عن ذراعها ليغسل جرحها الملتهب:

«ليس ما ترينه حلماً. فمن المرجح ان احد الرهبان الباسكيين قد بنى سداً يحفظ به ماء النبع ليسقي ماشيته».

وقبل ان يغمى عليها ثانية، قالت في نفسها ان هذا حقيقة. اختفى العالم الأخضر. فرأت نفسها تتعثر في سيرها بعدما لوحتها الشمس. واعمت اشعتها المتقدة عينيها واحرقت جلدها، ولم تشعر بوهجها يخف.

بللت رطوبة الماء شفتيها الجافتين احياناً. وكان لوني يضع القشة على فمها تارة مداعباً ممازحاً كما كان يفعل في ايام طفولتها حين كانت رجلاها القصيرتان تعجزان عن اللحاق بخطواته الرشيقة.

وكانت طوراً ترى رايلي يطلب اليها ان تستريح وتهدأ. ولم تفهم انه يحكم عليها ان تسير تحت أشعة الشمس الحارقة. وهكذا تابعت سيرها ضمن اتون من النار الحامية.

ولم يوفر بزوغ القمر لها الراحة. بل احرقتها اشعته الفضية اللاذعة. ولم يبرد الجو في ليل الصحراء كالعادة انما شعرت بالحرق يغلي تحت جلدها. وازدادت حالتها سوءاً مع شروق الشمس. فصرخت من شدة الألم. ولم تجد مفراً من التعرض لحرارتها القاسية. وكانت ملابسها هي مصدر الوقاية الوحيد من السنة اللهيب الحادة. ولكنها لفرط خوفها شعرت بيد تخلعها، وحاولت بكل قوتها ان تمنع ذلك.

واوقف صوت رايلي الثابت بهدوئه الكابوس المزعج:

«ليا، هل تستطيعين ان تسمعي؟».

قالت وهي تبكي لشعورها بانها ليست وحيدة:

«اجل».

وفتحت عينيها لتكتشف انها ما زالت في الواحة الخضراء، وقد انحنى رايلي بقربها وهو عارٍ الى الخصر.

وحالت سمرته الجذابة بينها وبين فقدان الرشد. وقال لها وهو يلفظ كلماته ببطء وهدوء حتى تفهمها رغم هذيان الحمى:

«عليّ ان اخلع ملابسك».

امالت رأسها جانباً لتعترض اذ لم يكن بوسعها السماح له برؤيتها

عارية. فهذا مناقض لكل المبادىء الأخلاقية التي غرسها فيها والداها.

وهمست بصوت تخنقه الحمى:

«كلا، لن تفعل».

قال رايلي بصوت يملأه الاصرار:

«اصغي الي. لا سبب للارتباك والحياء. فأنا هندي. والهنود يعتبرون الأجسام العارية جزءاً من الطبيعة. وعلي الآن ان انزل درجة حرارتك بتغطيسك في ماء النبع البارد».

كانت الحمى مصدر النيران التي التهمت جسمها. وفهمت ليا انها لذلك لم تستطع الافلات من النار المحرقة. ورغم ذلك، ابى عنادها التسليم بمنطقه. وقالت بشق النفس وهي لا تكاد تقوى على لفظ كلماتها:

«اتركـ... اترك ثيابي علي».

اجاب رايلي:

«لا يمكن. فالمفروض ان ترتدي ملابس جافة عندما تخرجين من الماء. لا تقاوميني يا ليا. الأجدر بك ان تدخري قوتك للساعة الحاسمة».

وظلّ فكرها يقاوم في حين سهّل جسدها عمله. وفي شبه غيبوبة شعرت ليا ان رايلي رفعها بين ذراعيه وحملها الى الماء فيما ارتاح رأسها على كتفه.

ثم انزلها الى الماء حيث غسلتها امواج البركة الباردة من قمة رأسها الى اخمص قدميها. وحالت الذراع القوية التي طوقت خصرها بينها وبين الغرق في ماء البركة المنعش وظللتها اغصان شجرة صفصاف صغيرة ووقتها حر الشمس.

ظنت ليا ان حركة الوقت قد شلت. وادركت اثناء غيبوبتها ان رايلي كان عارياً.

لكن ذلك لم يهمها طالما غمرت المياه الباردة جلدها المتقد.

وتحركت عشوائياً محاولة التخلص من القيد الذي كبلها بإحكام، ورغبت ان تدغدغها مياه البركة المنعشة ثانية. وشعرت بيد تلمس صدغها بلطف ثم تستقر على عنقها. ورأت نفسها مستلقية على الأرض بين قدمي رايلي وقد تدثرا بالبطانية. وهمس في اذنها:

«نامي. انك بحاجة الى النوم بعد ان خفت الحمى».

واسترخت بقربه وهي مغمضة العينين. فتحول دفء جسمه مياه امينة تلجأ اليه بعد ان كان آتوناً محرقاً تضطر ان تهرب منه. ونامت من دون ان ترى احلاماً او تصاب بكوابيس.

وايقظها رايلي اثناء النهار ليطعمها بعض الحساء. وسرعان ما عادت الى النوم. وبعد فترة احست به يستلقي قربها.

ولما فتحت عينيها للمرة الثالثة، اكتشفت انها كانت تتدثر بالبطانية وحدها وان كرة الشمس قد علت في السماء. وجذب صوت النار المتأججة نظرها الى مركز الأرض الخالية من الاشجار. والفت رايلي قابعاً قرب النار يحرك محتويات القدر!

وقد ارتدى بنطالاً من قماش جينز لم يلبس قميصاً على وسطه، فعكست كتفاه وصدره البرونزي موجات ذهبية تحت اشعة الشمس. وفجأة تطلع فوق كتفه وكأنه احس بنظرات تتركز عليه. ولم تتذكر انها رأت وجهه البارز المعالم على هذا القدر من الجمال والجاذبية من قبل. وببطء التقت نظراتهما. وقال وقد اشرقت في عينيه وعلى فمه ابتسامة:

«مرحباً».

اجابته وهي تشعر بارتباك وحياء لم تعرف سببهما:

«مرحباً».

سألها وهو يصب السائل من القدر في طبق صغير:

«هل انت جائعة؟».

«بعض الشيء».

وحاولت الجلوس، فاكتشفت انها اضعف مما تصورت. وقال وهو

يسير نحوها جذلاً:

«ابقي مستلقية. سأطعمك بنفسي».

افتر ثغرها عن ابتسامة ماكرة وهي تقول:

«هذا عمل الزوجة، أليس كذلك؟».

بادلها الابتسام:

«يضطر الهندي احياناً ان يمارس دور الزوجة عندما تصاب امرأته بالحمى».

خفق قلبها لدى سماع هذه العبارة. ولكن، لا يمكن ان يكون قد قصد المعنى الحرفي لما كان يجيب على سؤالها بطريقة مازحة. والمؤكد مع ذلك ان القلب يخفق للفكرة.

وضع رايلي الطبق على الأرض. ثم اسند رأسها الى وسادة صنعها من قميصه واحدى الحزمتين. ثم جلس واضعاً رجلاً فوق رجل وهو يحمل الطبق بيده.

ولما تناولت اول ملعقة حساء وضعها رايلي على شفتيها، سألت:

«كم مدة نمت؟».

اجاب وهو يدني ملعقة اخرى من فمها:

«ثلاث ليال».

شهقت:

«كل هذه المدة الطويلة؟».

علق مازحاً:

«لا تحدثيني وانت تتناولين الطعام حتى تنتهي بسرعة».

عجزت لما عن تناول اكثر من نصف الصحن الصغير. فوضعه رايلي جانباً دون ارغامها على تناول المزيد. وقال وقد امال رأسه جانباً ليحدق اليها متفحصاً:

«كيف هي ذراعك الآن؟».

حركت ذراعها اليسرى بتردد. ثم تحسستها بعناية. ورغم انها لم تنبض بالألم، فكانت تؤلمها. وابتسمت بارتياح. وقالت وهي تهز

رأسها:

«افضل بكثير».

اضاءت عينيه ابتسامة لطيفة لمستها حدة عبارته حين قال:

«الأفضل ان اعاينها بنفسي. فأنا لم اعد اثق برأيك».

وبدأت تفك ازرار بلوزتها دون اعتراض. وحين بلغت الزر الثالث، تبين لها انها ستكشف عن جسد عار. فاحمرت خجلاً وهي تنظر نظرة عتاب الى رايلي. فسألها وهو يعقد جبينه:

«هل تذكرت اني غسلتك وخلعت ملابسك عندما كنت تهذين من الحمى حتى اتمكن من تغطيسك في البركة؟».

عبثت اصابعها بالازرار من دون ان تفكها او تزررها. وقالت وهي تشيح بنظرها بعيداً:

«اجل. اذكره».

قال موضحاً:

«لقد نزعت كنفك من حل الحزمة. لذلك لم اضع عليك ملابسك الداخلية».

تنهدت وهي تحدق الى اصابعها وقد قبضت على مقدم البلوزة:

«اه. لقد فهمت».

امسك ذقنها بين ابهامه وسبابته. ثم رفع رأسها لتلتقي عيناها حيث ترقصت اطياف المداعبة والمكر. وقال:

«هذا ما فعلته. وقد كان بامكاني ان ارى والمرح على كل شيء».

ازداد حياؤها مع تعاظم التهكم في صوته. ثم اضاف:

«وعليه، الا تظنين انه من السخف الافراط في الحشمة الآن؟».

اكملت ليا فك ازرار بلوزتها. وبعد ان انفرج رايلي ذراعها من كمها. غطت صدرها بيدها فيما اخذ صوت نبض قلبها اذنيها.

لم يفرح رايلي بما فعلت، بل عاين جرحها واعاد تضميده بمهارة دون ان يكترث لها. ثم ساعدها على ارتداء بلوزتها ثانية.

اعادت ليا تزرير مقدم بلوزتها فيما اعلن وهو يشيح نظره عنها:

«واظن انه سيشفى هذه المرة. واتمنى لو احطم رأسك لانك لم تعرفي انه كان يؤلمك».

فدافعت ليا عن نفسها بارتباك:

«ظننت انه سيشفى».

ثم رفع الصحن لينطلق الى صحنه دون توقف عما ذكر ليا بعزلة الحيوانية. وقال:

«تعرلين سلطة الحكم من الآن فصاعداً. والأفضل الآن ان تستريحي بعض الشيء».

قالت وهي تقاوم الضعف فيما حاولت الجلوس:

«لقد نمت اياماً عديدة. والأفضل ان انهض من ان اغدو طريحة الفراش دائماً».

تمتم رايلي:

«ستكون امامك فرص عديدة لتمرين رجليك الزلة. ولكن، الأفضل ان تستريحي طوال بعد الظهر».

لم تقو على النهوض بنفسها. فاضطرت الى الاستلقاء على ظهرها. ورغم نومها ساعات طوالاً، نامت سريعاً ما رقدت.

واذا افاقت ليا وقد غمر الغسق الارض بنوره الليلكي، فيما عكست الشمس لوناً بنفسجياً فوق صفحة الماء في البركة المستديرة. ورأت قطع لحم تشوى فوق نار خفيفة. وتنبه رايلي بحاسته السادسة الى ان ليا قد استيقظت. وقال:

«الطعام جاهز تقريباً. هل ترغبين بالجلوس قرب النار؟».

اجابت مصرة:

«اجل».

ولما اوقفها رايلي على قدميها، اخذت رجلاها الضعيفتان كالقصب ترتجفان. وترنحت بينما توجهت نحو النار. وشككت في قدرتها على اجتياز هذه المسافة القصيرة لولا الدعم الذي وفره لها رايلي فطوق خصرها بذراعه.

وارتجفت وهي تجلس فوق النار وتضع رجلاً فوق رجل. وادركت مدى ضعفها. وارتعشت يدها وهي تمسك طبق الأعشاب الخضراء المطهية الذي قدمه لها رابل. وقال وهو يصب باقي الأعشاب في صحنه:

«وجدت بعض الفطريات في طرف البركة الأخرى. وربما كانت الياقها قاسية، غير انها شهية ومغذية».

راق الطبق لليا رغم قساوة الالياف، الأمر الذي حذرها منه رابل. غير ان لحم السونو الأبيض الطري، والذي شوي فوق مشواة خاصة على نحو جيد، هو الذي فتح شهيتها. وبعد ان تناولت آخر قطعة من اللحم، ولعقت اصابعها اعجاباً وتذوقاً، شعرت ليا انها كانت تحلم، وتنهدت:

«انه لذيذ».

نظر الى وجهها نظرة جانبية:

«هل اعجبك؟».

ضغطت يديها على معدتها الممتلئة قائلة:

«اذا لم اشبع في حياتي مثل اليوم. ولكن، كيف استطعت ان تلتقط السونو؟ هل نصبت فخاً؟».

«لو لم تنم عميقاً، لسمعت صوت البندقية». وابتسم بخبث قائلاً:

«سونو؟».

تطلعت اليه بفضول:

«كان هذا عشاءنا. اليس كذلك؟».

رد رابل:

«كلا. لا اريد ان افسد عليك طعامك. غير ان الوجبة تألفت من لحم افعى ذات اجراس».

اغمضت ليا عينيها، فيما اسرعت الى مقاومة شعورها بالتقيؤ. ثم تنفست عميقاً، واستعادت لونها ببطء بعد ان تخلصت من شعور الغثيان. وراقب التغيرات في تعابير وجهها، ثم قال وقد رد

فضحك في صوته:

«هل كانت الوجبة لذيذة الى هذا الحد؟».

اقرت ليا:

«انا لا احس الآن انها شهية ولذيذة بقدر ما كانت عندما ذقت اللحم وظننته لحم ستونو».

ابتسم رابل وهو يشعل سيكارة ويقدمها اليها. ثم اشعل سيكارة اخرى لنفسه. واتحد دخان سيكارتيهما بدخان النار الضئيل. ورغم ان ليا تغلبت على صدمة تناول اللحم، فقد رغبت في التحدث عن شيء غير الطعام.

«اتدري انك لم تكد تحدثني عن نفسك خلال فترة ضياعنا، فيما مضيت انا أثرثر متحدثة عن والدي وشقيقي لوك وطفولتي المشردة وانا لا اكاد اعرف عنك سوى انك تصمم جواهر الفيروز».

صحيح انها لاحظت فيه مزايا عدة مثل رباطة الجأش في الأزمات ومعرفته للصحراء. غير انها لم تعرف حقائق عملية عن حياته. وسألته بلهجة حاذقة دون ان يرفض تقديم بعض المعلومات عن شخصه:

«ماذا تودين ان تعرفي؟».

الحقيقة ان ليا ارادت معرفة كل شيء. لكنها حاولت ان تبدو بريئة وغير مبالية. فقالت:

«لست ادري. ولكن، على سبيل المثال، كيف يمكن لشخص هندي في بعض اصله ان يحمل اسماً مثل رابل سميث؟».

ضحك رابل وهو ينفث سحابة رقيقة من دخان سيكارته. وقال:

«هل توقعت مقابلة شخص يحمل اسماً مثل جون بلاك فذر؟» (جون ذو الريشة السوداء).

ضحكت ليا من جوابه الظريف:

«شيء مثل هذا».

«وهبتني امي اصلي الهندي، فيما أعطاني ابي الايرلندي اسمه».

انعقد جبين ليا للسؤال. فابتسم رايل وهز رأسه:
«ان والدي ايرلندي اصيل رغم ان اسم اسرته هو سميث».
«وكيف ذلك؟».
«لبضعة عقود خلت تعود اصحاب الماضي المشبوه من الرجال على تغيير اسماء اسرهم. وهذا ما فعله والدي اذ لم يعرف اسم اسرته الحقيقية. وتقول الاشاعة ان جدي تعارك مع احد الرجال وقتله في حانة في شرق البلاد. ولم يتأكد احد ما اذا كانت هذه القصة حقيقية ام خيالية. لكن هناك حقيقة واحدة ثابتة، وهي ان جدي تزوج من فتاة ايرلندية تدعى موررين اودرايل . ولما اعطاني والدي اسمي، حذف مقطع «او» من اسم والدته».
«واما زال والداك على قيد الحياة؟».
«كلا. فوالدي قتل في حادث سيارة بعد ولادتي بفترة قصيرة. ولم تقدر والدتي ان تنفق علي. فنشأت مع جدي لأمي في ارض قطعتها الحكومة للهنود. ثم ماتت والدتي وانا في الثامنة من العمر».
توقف رايل ليتأمل طرف سيكارته بضع لحظات. ثم التفت الى ليا:
«هل ترغبين معرفة شيء آخر؟».
حدقت ليا الى النار. ثم تذكرت قول غراي ان رايل يحب العيش منفرداً. فدهشت لأنه اخبرها كل ذلك عن حياته وماضيه، الا ان سؤاله الأخير دعاها الى طرح المزيد من الاسئلة. ولا شك انها رغبت في معرفة اشياء كثيرة اخرى. وقالت:
«اخبرني عن نشأتك في الأرض التي اقطعتها الحكومة للهنود».
«كانت نشأة بسيطة».
وادرك ان جوابه لم يكن كافياً. فأضاف:
«كنت ألعب مع اولاد الهنود الى المدرسة، وارعى الغنم لجدي، واساعد في اعمال اخرى في بيته الواقع بمنطقة نصف صحراوية معزولة. وكان جدي يصنع مجوهرات الفيروز لزيادة دخله الضئيل.

ولذا سمح لي بمساعدته اوقات فراغي».
وابتسم ابتسامة ساخرة وهو يتذكر:
«لقد اقتصرت مساعدتي على تكسير الخامات في اغلب الأحيان».
«وما هو تكسير الخامات؟».
اوضح رايل:
«تكسير الخامات هو فصل الفيروز عن الصخر الضعيف بواسطة كماشة صغيرة طويلة الفكين او مطرقة او كتلة رصاص. ومعظم الخامات التي حصل عليها جدي استخرجت من منجم مهجور تم استغلاله من زمن بعيد».
«وهكذا بدأت تهتم بالمجوهرات وتتعاطى تجارتها؟».
قال وهو يرمي عقب سيكارته في النار متأملاً النجوم القليلة التي ظهرت في السماء:
«اجل. فإلى نشأت وانا افكر كهندي في كثير من الأمور واحفظ بعض العادات والتقاليد القديمة مع انني ابيض. والحقيقة انني لم اشعر بالانتماء الى اي من الفريقين».
ثم توقف. غير ان ليا انتظرت من دون ان تتكلم فأضاف:
«لم اتأكد قط ما اذا كان تركي الأرض التي اقطعتها الحكومة للهنود عائداً الى ربع دمي الهندي التائق الى الحرية ام الى جزئي الأبيض الطامح الى نمط مختلف من الحياة».
علقت ليا:
«لا يمكنك ان تجزىء نفسك لأنك نتاج هذين العالمين».
واضافت في سرها انه رجل قوي مكتمل الرجولة، خلاق ذكي، واسع الحيلة وشديد الكبرياء، وان اجتماع كل هذه الصفات فيه اعطاه سلاماً داخلياً وثقة بالنفس لا تتزعزع.
وقال بحزم:
«بدأت تقلقين الاشياء. واظن ان وقت النوم قد حان. وسأقرب فراشنا من الموقد».

فيما قرّب رابلي البطانية بضعة امتار من الموقد، حدقت ليا الى اللهيب القريب من ركبتيها، وسألت:

«لماذا تشعل ناراً صغيرة باستمرار؟ الا يزيد حجمها من دفئها؟».

وضع رابلي البطانية على بعد ذراع من كومة الحطب كما يسهل عليه تزويد النار اثناء الليل وقال:

«اعتاد الرجل الأبيض ان يشعل ناراً كبيرة. ثم ينام على بعد بضعة امتار منها لشدة لهيبها. اما الهندي، فيشعل ناراً صغيرة وينام قربها».

ثم مد يده لها ليساعدها على الوقوف. وانعكست في عينيه ألسنة النار المتأججة في الموقد.

٧- ايام في الفردوس

كان هدوء البركة وبرودتها مريحين للاعصاب. وانحنت اغصان الصفصاف الصغيرة فوق الماء لتعكس ظلالها على صفحتها. وحركت النسمات اللطيفة الحشائش النامية عند طرف البركة الآخر فيما جرت المياه عند جانب البركة المسدود في طريقها الى مجرى الجدول الفضي.

واتكأت ليا على جذع شجرة رفيع. ثم انتزعت ورقة عشب. ولم تكن ضعيفة كالامس. غير ان قوتها ما لبثت ان تلاشت.

امتد فوق الماء حبل ممزوج من خيوط حلّها رابلي من احدى قمصانه وشدّها على بعض. وشد الحبل من طرف الى احد عمودي المظلة، فيما علق بطرفه الآخر دبوساً من صندوق الاسعافات الأولية مصمم على هيئة خطاف.

علت ثغر ليا ابتسامة خفيفة متسائلة:

«هل حقاً تتوقع ان تعيش الأسماك في هذه البركة؟».

رمقها رابلي بنظرة جانبية وهو يبتسم:

«لكنها طريقة رائعة للجلوس والتفكير».

«والتفكير بماذا؟».

هزّ رابلي احد كتفيه:

«باشياء...».

«اشياء مثل ماذا؟».

عبس رابلي مرحاً لها انه يفكر جدياً ولو لمرة. ولم يجبها على الفور. ثم مسحت نظرته الحادة المنطقة المحيطة بها:

«هذا مكان رائع اذ يكثر فيه الماء والحطب الذي يقطع من تلك الاشجار الواقعة هناك».

اضافت الى تفويه العسل:

«وهو مكان رائع وهادئ، ومن حسن الحظ انك عثرت عليه».

اجاب:

«تعرفين ان البقعة الخضراء في الصحراء تظهر عن بعد اميال عديدة. وحيث توجد الخضرة يوجد الماء. وقد رأيت هذه الواحة الخضراء منذ بلغنا سفح الجبل».

تفحصت ليا الجبال التي احاطتها من ثلاث جهات محاولة تحديد القمة المسننة حيث تحطمت طائرتهما. ولم تقدر على ذلك لان القمم تشابهت. فسألت:

«اين كنا؟»

اشار رايلي الى قمة جبل لم تبد بعيدة.

«كنا هناك فوق على بعد حوالي خمسة واربعين كيلومتراً. هل ترين الحفرة الصغيرة على الجانب الآخر من القمة؟ هناك تحطمت طائرتنا».

تنهدت وهي تتكىء ثانية على الشجرة:

«اظن اننا نعتبر في عداد الموتى بعد مرور هذا الوقت الطويل».

كان هذا يومهما الثامن. وبدا الوقت قصيراً من جهة وبلا نهاية من جهة اخرى.

فقال رايلي عابساً:

«ستمر ثلاثة او اربعة ايام قبل ان تستردي صحتك وتستطيعي الخروج من هنا».

علّقت ليا:

«لن نخشى هنا انقطاع الماء على الاقل. كما اننا نأمل ان نحصل على الطعام».

في هذا الصباح كان رايلي قد اعلن انهما لن يستعملا علب المأكولات المجففة الثلاث الباقية الا في ساعة الحاجة وانقطاع السبل، وانهما سيأكلان عوض ذلك كل ما يصطادانه. ولذا نصب

احبولتين على طول الطريق المؤدية الى مورد الماء. واذا اخفقت خطته هذه فانه سيلجأ للصيد بواسطة مسدسه علماً بان هناك وفرة من الافاعي يمكن الاعتماد عليها رغم ان ليا شككت في قدرتها على تناول لحم الافاعي باللذة والشهية نفسيهما كما في المرة الاولى عندما لم تكن تعرف نوع اللحم.

وقال بهدوء وهو يحرّك الحبل في الماء:

«الطعام الموجود هنا يكفينا نحن الاثنين مدة ثلاثة ايام. ويكفي واحداً منا مدة ستة ايام».

تشنجت لدى سماع لهجته:

«وما المقصود بهذا الكلام؟»

قابل نظرتها المتحدية بوجهه الهادئ، والخالي من التعبير:

«هذا يعني ان تبقي هنا فيما اخرج طلباً للنجاة».

علّقت بسخط:

«ناقشنا هذا الموضوع من قبل».

وعاد رايلي يركز انتباهه على صنارة الصيد:

«الاوضاع تختلف الآن لانك لا تقدرين على السفر قبل بضعة ايام. وقد لاحظت على بعد حوالي ستة عشر كيلومتراً من هنا طريقاً ترابياً يصل الى مركز الوادي. ومن هناك قد يتصل بطريق عام او بيت زراعي».

«وما هي المسافة؟»

اجاب وهو مستغرق في التفكير:

«لست ادري. فانا لم ار الدخان يتصاعد من الجنوب في الصباح كما قد يشير الى بعد اقرب بيت زراعي من هنا. وقد ذهبت في اليوم الثاني لوصولنا الى الطريق حيث لم يظهر اي دليل على استعماله منذ بضعة اسابيع او اكثر. ومن المحتمل انه هجر عندما هجر المخيم. ولا شك انه يؤدي الى مكان ما».

ضغطت على اسنانها بعزم واصرار:

«لن ابقى هنا وحدي يا رايلي. انا اعني ما اقوله».

«كلما اطلنا الاقامة هنا، كلما ازداد خطر حدوث مكروه. ستكونين في مأمن لوحدك».

ذكرته ليا:

«لقد قلت اننا عشنا المحنة معاً. ولذا لن ادعك تنطلق وحدك».

«انك ضعيفة ولا تقوين على الذهاب الآن».

اعترضت بقوة رغم ادراكها ان قول رايلي صحيح:

«انا لست ضعيفة. انا قادرة ان امشي معك مهما طالت المسافة والوقت. ولا احس بتعب. فالحمى اقلعت عني واصبحت قوية معافاة كالحصان».

ورغبة في اثبات صحة ادعائها، وقفت بسرعة ومشت بخطوات رشيقة نحوه. الا ان الحركة المفاجئة ادت الى اصابتها بالدوران فوراً. وضغطت بيديها على رأسها بعد ان اختل توازنها.

وفي اقل من ثانية وقف رايلي وطوق خصرها بذراعيه ليسندها. واتكأت عليه بتثاقل وهي تجهد نفسها لاستعادة احساسها بالتوازن. ثم رفعها بين ذراعيه والقاها ثانية على جذع الشجرة.

وسخرت عيناه الخضراوان من شحوب وجهها:

«والآن هل تعترفين بأني مصيب؟ فانت ضعيفة جداً».

دافعت ليا عن نفسها وهي تلقي رأسها على الشجرة لتحدق الى الرجل الجاثم بجانبها:

«تحركت بسرعة. هذا كل ما في الأمر. وانا اقسم انك لن تذهب وحدك يا رايلي. فاذا ذهبت سألحق بك».

ولما تحدثت احست بغصة في حلقها رغم تحكمها بنبرات صوتها.

اما رايلي، فتملكت ملامحه سخرية وتجهم. واستدار وهو لا يزال جاثياً على ركبته ليعود الى مكانه. وقال:

«اظن انك تعنين ما تقولين».

بيد ان ليا احتاجت تطميناً فعلياً بانه غير رأيه ولن يتركها وحيدة. فامسكت بقميصه قصد ايقافه. وانحنت الى الامام لتتفحص تعابير وجهه بعينيها البنفسجيتي اللون الحائرتين.

وهتفت:

«رايلي».

حدق رايلي فيها من دون ان يتفوه بكلمة او يظهر شيئاً من افكاره او قراره. والتمعت عيناه غضباً. وتحركت يده على مهل من دون ارادته على خصرها.

وتسارعت ضربات قلبها خوفاً وقلقاً وحماسة فيما شدّها رايلي اليه عناقاً وضماً...

وفجأة تمدد رايلي على ظهره وهو يمسك بها. واطبقت جفونها لتخفي الشوق المتلمع في عينيها. وهمست بارتعاش:

«لقد اردتك ان تفعل هذا».

علّق بصوت مرتعش كشف احاسيسه رغم تحكمه بعواطفه عادة:

«ليا. انك لم تعرفي رجلاً من قبل؟».

خافت من سؤاله اللطيف اكثر من عناقه الشرس. وتدلّى شعرها الحريري على وجهها ليستر الحمرة التي علت وجنتيها فيما افلتت من قبضته الفولاذية وانتصبت واقفة. واحست بنظراته الثاقبة تلاحقها. الا انها لم تقدر على مواجهته. وظلّت تدير ظهرها له بينما ادخلت يديها المرتعشتين في جيوب بنطالها وتنفست بتقطع. وكرر رايلي:

«اليس كذلك؟».

واحسّت بصوته يأتي من ورائها مباشرة. وادركت انه وقف دون ان تسمع حركته. وفوراً احاطت يداه بخصرها. وقالت:

«لا اجد سبباً يدفعني للاجابة على سؤالك».

انخفضت عيناها وهي تتمنى الا تحسّ بقربه. واجاب ببساطة:

«اريد ان اعرف».

تحدّته بعصبية:

«كان بامكانك ان تكتشف ذلك بنفسك. فانا لو ملأت الدنيا زعيقاً وصراخاً فلن يسمعني احد. ولكن ما الذي اوقفك؟»

وادارها نحوه والغضب يتطاير من عينيه الخضراوين.

وتبينت له سذاجتها. فارخى قبضته الفولاذية عن خصرها وغاب الشرر من عينيه عندما لمح الخوف في عينيها. وقال مبتسماً:

«لا بأس عليك. لا داعي للخوف».

طرفت عيناها:

«ممن اخاف؟ منك؟ ام من نفسي؟».

وتنفس عميقاً فيما ضاقت حدقتاه الخضراوان:

«لا تقولي مثل هذه الاشياء».

سألت:

«لماذا؟ انا لا انكر انني للحظة كنت اتمنى لو تداعبني».

قال بغضب وهو يدفعها بعيداً عنه:

«حسناً. حاولي».

ولما ركزت ليا نظرها على رايلي، كان الغضب الذي علا وجهه قد اختفى، وبرزت على ملامحه الدقيقة رباطة جأش لا تتزعزع. وشعرت ليا انها تدور في دهليز خصوصاً وان تصرفاته اربكتها. فهي ليست ساذجة الى حد لا تعرف معه ان رايلي اراد الحصول عليها. ولكنه رفض مقاربتها فور معرفته انها عذراء. لماذا يا ترى؟ الا ترضي عدم خبرتها ذوقه؟

واغرورقت عيناها بالدمع وهي تصرخ في وجهه غاضبة:

«اني لا افهمك يا رايلي سميث».

قطب جبينه وهو يلتفت اليها بسرعة ويجيبها بقسوة:

«الامر في غاية البساطة. فانا عندما اكون في الصحراء لا يسعني ان افكر الا كالبدو».

جلا جوابه الغامض الامور لليا اكثر من تصرفاته. فركت رقبتها غيظاً وهي تحاول تجفيف دموعها السخية. واستطاعت ان

تحبس دموعها بدون ان تسيطر على ذقنها المرتعشة.

وتنهد رايلي. وسار على العشب بخفة وهو يتجه اليها. ولامست يداه كتفيها. فنفرت منه. غير انه ضغط عليهما ثانية. وصاحت في وجهه بحدة وهي ترجع رأسها الى الوراء لتحدق اليه:

«لا تقنعني بانك ملاك».

واتى رايلي برباطة جأش:

«لست عفيفاً او ملاكاً ابداً. لكني لا ازمع ان افسح عن عقد اخلاقي».

واجابت متهكمة:

«هذا مريح».

وتحدث ببطء وهو يسخر من نفسه:

«يعتبر البدو كل امرأة تعاشر رجلاً قبل الزواج غير نظيفة، ولذا تربيته يتجنبها. واقر ان هذه عادة رائعة احب المحافظة عليها في هذه الايام الشريرة. اما فيما يتعلق بك، فانا مجبر على اتباع تعاليم جدي. فلقد عشنا كل هذا الوقت والنص معاً، ولن اكون اول من يفسد طهارتك».

افترّ ثغرها عن ابتسامة مرتعشة بينما ابتعدت كلماته الغيوم المتلبدة عن قلبها واضاءت نور السعادة امامها. وتنفست الصعداء:

«وهذا هو سبب سؤالك؟».

ابتسم رايلي ببساطة:

«اجل».

طوقت خصره بذراعيها وهي تتنفس راضية. ثم القت رأسها على صدره. اما هو، فشدها اليه بقوة فيما داعبت يده كتفيها وعبثت اصابعه بشعرها. فتعانقا. . .

ثم افلتها. وقال بجفاء وهو يحدق اليها بحنو:

«حان الوقت الذي تهتمين فيه بصيد السمك فيما افحص انا الافخاخ».

همست ليا:

«دعني العب معك».

وضع يده على فمها وهو يهز رأسه الأسود:

«اريد التأكد من حصولك على راحة كافية لتتمكني من طهي عشائنا هذه الليلة».

واجلسها على الارض قريباً من صنارته. وجلست ليا من دون مقاومة على الضفة فيما مشى هو بعيداً. وشعرت انها بدأت تميل نحوه، هذا ان لم تكن قد وقعت في هواه. فهل هذا ناتج عن حقيقة انها لم تكن لتستطيع العيش من دونه في هذه الصحراء المجدبة. كلا. صحيح انها قدرت فيه كفاءته وسعة حيلته وقوته، الا ان مشاعرها كانت اسمى من ذلك. ولم تكن اهواء جسدية فحسب.

فهي الان تحبه بغض النظر عن كل الاعتبارات الأخرى. وحاولت ان تنبه قلبها الى ان مدة ثمانية ايام لا تكفي للوقوع في هوى رجل. فاجاب قلبها انها هي ورايلي عاشا تجارب قد لا يمرّ فيها زوجان طوال حياتهما.

وانحصرت نقطة الشك الوحيدة في موقف رايلي تجاهها. فهل تخطت مشاعره حد الافتتان بمحاسنها؟ وانتهت ليا الى ادراكها انه ليس باستطاعة احد حمل رايلي على التصريح باي شيء. واكتفت الآن بالتأكد من حبها له.

وقع ارنب في احد الافخاخ. فنظّفه رايلي وعلّم ليا كيف تشويه. واحتوت وجبتها طبقاً من الاعشاب التي قررت ليا ان تجعلها عنصراً اساسياً من غذائها. ووهنت ليا بعض الشيء نتيجة ما بذلته من جهد لاعداد وجبتها. ووضعت الاطباق فوق النار لتجف. ثم داعبت شعرها الكستنائي بيد متعبة متمنية الدخول في حمام ماء ساخن. وسأل رايلي بلطف:

«هل انت متعبة؟».

اعترفت:

«بعض الشيء».

وجلست بقربه امام النار مستندة الى رجليها. وقالت:

«كنت تفكر انني مشكلة؟».

واحاطها رايلي بذراعه واحناها من كتفه. واطبق يده على معدتها فيما جعلها تتطلع الى النار. وحدقت ليا الى اللهيب بينما تملكها شعور عارم بالنعيم والسعادة. ومازحته وهي تتنهد تنهيدة رضى:

«الن تقول بانني لست مشكلة؟».

قهقه رايلي:

«لن اقرر واقعاً».

هزت ليا رأسها هزاً سريعاً تعبيراً عن الغضب. ثم قالت بلهجة مازحة:

«هذا جواب لبق وذكي».

وعوى ثعلب في وجه القمر. فانضم الى نشيده ثعلب يقف على تلة اخرى. وتألقت السماء المخملية بنجوم ساطعة.

ولامست ذقنه شعرها. وقال بصوت مبحوح اسرع خفقات قلبها:

«هل تريدين ان اقول ان شعرك معطّر بشذا نبات الناعمة والدخان، وان لونك يذكّرني بجلد الظبية الصغيرة المرقط وهو يلتمع في شمس الصباح؟».

حبست ليا انفاسها:

«وهل هذا حقاً ما تظنه؟».

ابتسم رايلي فوق شعرها:

«واما عيناك، فتشبه عيون الهها لوناً واستدارة ورقة. وقد لوحت اهدابك الشمس. وعظامك رقيقة كعظام الظبي».

واحاطت يده بساعدها ليشدّ ذراعها الى ذراعه ويدنيها اليه. واحست انها تغرق في بحر من العواطف الجيّاشة. لكنها لم ترغب في السعي للافلات منه. وقالت:

«واظن انك ورثت المجاملة وتنميق الكلام عن اجدادك الايرلنديين».

اجاب وهو يتأمل شعرها:

«وهل تظنين ذلك؟ هذه تركة طبيعية من اجدادي لكل من ابي وامي. وبعض اعظم الخطباء في تاريخ اميركا هم من المتحدرين».

لم تحمل عبارته اي مرارة او اي شيء يستحق الرد. وطغا صمت الصحراء.

ومرّ وقت طويل قبل ان يعلن رايلي ان وقت النوم قد حان. والامر الوحيد الذي دفع ليا الى الموافقة هو معرفتها انها ستستند الى ذراعه اثناء النوم. وهدهدتها ضربات قلبه المتزنة حتى غفت.

قطع الهواء البارد الدفء والهدوء على ليا. فانزعجت بدون ان تفتح عينيها، بل دنت التماساً للدفء. لكنها لم تجده في مكانه. فاستفاقت فوراً. فوجدت انوار الصباح تغمر المكان، والسنة اللهيب تلتهم الحطب الذي اضيف حديثاً الى النار. فرفعت الغطاء وجلست. الا انها لم تر اثراً لرايلي.

ولم تجد اثراً للقنينة. ونظرت الى البركة حيث ظنت رايلي يملأ القنينة ماء. بيد انها لم تجده. وانتصبت واقفة تتفحص محيط المخيم.

وسيطر عليها خوف شديد. فتمتمت بصوت عال وكأنها تطرد الافكار السوداء من رأسها: «لا يمكن ان يكون قد ذهب، انه لن يفعل».

بيد ان احتمال ذهابه كبير. وها هي وحدها في الصحراء. واقشعرّ بدنها عندما تذكرت انه لم يعدها بعدم مغادرة المكان من دونها. والحقيقة انه لم يقل بانه لن يذهب.

وحولت نظرها الى وسط الوادي حيث تسلل مع خيوط الفجر الاولى ظاناً انها ضعيفة وتخاف اللحاق به.

وصرفت ليا اسنانها بحنق وهي تتمتم: «سالحقك يا رايلي سترى».

ظنت انه ليس بعيداً عنها، وانها ان حثت الخطى ستلحق به. ونهضت ودفعت بعض الرمل الى النار برجلها. ثم حركت الجمر واضافت بعض الرمل اليه.

ولم تجد ضرورة لحمل الامتعة القليلة لان وزنها سيخفف من سرعتها. وكان رايلي يحمل القنينة وهي اهم ما يحتاجانه في الطريق.

لم تعط ليا نفسها فرصة لتفحص دوافعها، بل هجرت المخيم من دون ان تلقي نظرة واحدة وراءها. وكان همّها اللحاق برايلي باقصى سرعة. وبدأت تعدو لتقطع المسافة التي تفصلها عنه. واصطدمت نباتات الصحراء الصغيرة برجليها. وطار سرب من طيور الجبل الزرقاء فوق النباتات بخفة مذعوراً. وانصبّ جلّ اهتمامها على الارض امامها.

واحست ليا بقوة خفية تجذبها الى الوراء. فصاحت صيحة مدوية مزقت حجاب الفضاء. واعاق حركتها جسم ثابت صلب لا يتحرك.

وشدها رايلي من كتفيها بقوة وعنف:

«قولي لي اين كنت تنوين الذهاب».

حدقت بذعر ودهشة الى وجهه المتلبد غضباً. وبدأت تبكي وتضحك في آن:

«رايلي؟».

واندهشت وهي تضحك وتبدي علامات الارتياح:

«ظننت.. ظننت انك ذهبت طلباً للنجدة. وظننت انك تركتني وحدي».

«انتها المجنونة...».

ولم يكمل رايلي جملته بل تابع بغضب:

«وكنت تنوين اللحاق بي».

القت رأسها على صدره لتلتقط انفاسها. وصاحت:

«قلت لك انني سأفعل».

وارخت اصابعه قبضتها التي نفذت الى عظامها وقال بحنق:

«كان من الواجب ان تتأكدي اني ذهبت عوض ان تركضي في الغابة كالمجنونة».

قالت:

«بحثت عنك. اين كنت؟».

ثم اقلتها كلياً. ووقف امامها عابساً وقد وضع يديه على وركيه:

«كنت اتفقد الافخاخ».

واشاحت بعينيها عن نظرته الوبخة شعوراً منها بالذنب والندم. فقد نسيت كل ما يتعلق بالافخاخ عندما ايقنت بذعر انه قد تركها. وقالت:

«لم اذكر ان هناك افخاخاً».

تنفس رايلي عميقاً وهو يقول ساخراً:

«لنعد الآن الى المخيم، ولنشعل النار ثانية. واضح انك عزمت على اللحاق بي. فهلا تفضلت وبحثي في طريق العودة الى المخيم؟».

واطرقت اذ لم تشك انه غاضب من عملها الطائش. فهي كانت منتصف الطريق. وحثت السير لتلحق به:

«كيف . . . كيف عرفت اين ذهبت؟».

اجاب باختصار:

«لم اعرف. لكنني سمعت عدواً وجلبة في الغابة. وخشيت اما انك تركضين، او ان قطيعاً من الماشية دعر فهرب».

تنهدت ليا:

«كنت مجنونة حقاً».

فنظر اليها نظرة باردة:

«انت محقة انا توقعت ان اقول لك العكس».

وقررت ليا التزام الصمت الى ان تهدأ ثورته. وغرقت في صمت مطبق فيما اعادت اشعال النيران. ولما اضطرمت النار ثانية بدأ رايلي ينظف عصفوراً التقطه في احد الافخاخ. دون ان يوجه الى ليا كلمة

او نظرة.

ولم تجد ليا شيئاً تفعله الا الجلوس ومراقبة رايلي فيما مزقها الصمت الزعج من الداخل. وتعاظم شعورها بالانزعاج الى حد شعرت معه انها عوقبت بقسوة لا تستحقها. واخيراً سعت الى مهادنة رايلي.

ولما عزم ان يضع العصفور النظيف على النار، تقدمت منه ليا مطلقة نكتتها التقليدية:

«دعني افعل ذلك. فهذا عمل الزوجة».

اجاب بصوت مفعم بالاحتقار واللامبالاة:

«وانت لست زوجة».

سألت ليا وقد جرحها كلامه كالسكين:

«رايلي، اني آسفة. ماذا تريدني ان اقول ايضاً؟».

ثم وضع العصفور على الشواة ووقف وقد ارتسم الغضب والعتاب الشديدان على ملامحه:

«وهل تدركين انك كنت ستموتين هناك؟ فاما ان تلدغك حية، او تسقطي وتكسري عنقك او تقضي من الجوع والعطش. فانت لم تأخذي معك اي شيء يقيك خطر المخاطر. لم تأخذي اي طعام او ماء».

صاحت رداً على صياحه واتهامه:

«أردت ان الحق بك ولم ارد ان تختفي الامتعة التي احملها سرعتي. اما القنينة، فكانت معك. وهل تظن انني كنت سأعدو في الصحراء وانا احمل قدر ماء؟».

«كان من المفروض ان تلتزمي مكانك وان لا تركضي في اي اتجاه. ولنفترض اني كنت قد ذهبت، كان يفترض بك البقاء حيث انت. اما القنينة فقد اخذتها معي لاملأها من البركة وانا في طريقي لتفقد الافخاخ».

اجابت غاضبة:

«لكني لم اعرف ذلك».

فمالت حنقتا فيما زفر زفرة غاضبة وصاح وهو يصرف اسنانه:
«عليّ ان اضحك فوق ركبتي واضربك تعويضاً لي على ما اصابني من ازعاج وخوف».
ردّت ليا:
«وماذا عما اصابني انا من ازعاج وخوف عندما ظننت انك ذهبت وتركتني؟».
قال رايلي:
«لذلك لحقت بي من دون ان تحملي شيئاً او تعرفي اين تتجهين. كان من المحتمل ان تضلي الطريق او تموتي قبل ان تغيب شمس النهار».
وبكت بمرارة وهي تدفع الشعر عن وجهها وتستدير مبتعدة:
«كنت ستتخلص مني ومن التفكير فيّ على الاقل. انت نادماً لانك لحقت بي واعدتني الى هنا؟».
ادارها نحوه وهو يشدها الى صدره بقوة مفاجئة:
«ان اصابك [illegible] فقد [illegible] صبره وثباته».
[illegible]
دفعها بعيداً عنه وهو يقول بسخرية وهدوء:
«لا تقولي شيئاً، بل انظري ما يجب ان تفعل حتى لا يحترق عشاؤنا فيما اغسل وجهي وبدني».
وكادت النار تحرق الطائر. فعملت ليا على تخليصه فيما توجه رايلي الى الساقية الضيقة التي تشكلت من جريان الماء المتدفق فوق جدران البركة. وبعد ان قلبت الطائر، راقبت ليا رايلي يجثم قرب الساقية ويرش الماء البارد على وجهه ورقبته.
وابتسمت له بينما نظرت الى الشمس الدافئة التي لم تلفح الارض باشعتها المحرقة بعد.

٨ - النقاهة

بعد ان تناولا طعامهما الفرح رايلي ان تستريح ليا خلال ساعات الظهر وبعده. فحاولت، لادراكها اهمية استعادة قوتها. الا انها لم تفلح.
واضطرمت النار في داخلها وهي تراقبه يصلح فخاً. لم تكن الحمى ناشئة عن عدوى، اللهم الا اذا كان الحب عدوى. واذا كان كذلك، فكم تمنت لو تنتقل هذه العدوى الى رايلي.
كم مرة حاولت ان تغمض عينيها! لكنهما كانتا تنفتحان لتلفتا الى رايلي الذي اثار وجوده حواسها. وكم مرة تمنت لو يحتويها بين ذراعيه، فتتبخرت من رأسها كل افكار الاسترخاء والراحة.
لم تجد محاولاتها الاسترخاء نفعاً. وادركت خطر التجربة الكامن في وسعها الراهن. فهما وحيدان في فردوس صغير، وقطف ثمرة التفاح النضرة الريانة سهل [illegible]. وهكذا ستغدو ليا امرأة حقاً.
نهضت ليا من [illegible] العشب الرطب وهي تمرر يديها على وركيها بسرعة. والتفت رايلي اليها متسائلاً عن سر نهوضها. فقالت بشيء من اللامبالاة وهي تبرر قرارها:
«سأغسل ثيابي في الساقية. ويمكنني ان اغسل قميصك اذا اردت. فأنا لا اشعر في رغبة بالاستلقاء من دون عمل».
وكان رايلي قد خلع قميصه وعلقه امامه. فهز رأسه موافقاً، ودفع بالقميص الى ليا. ثم عاد يركز انتباهه على الفخ الثالث:
«بامكانك ان ترتدي احدى القميصين اللذين حزمنا بهما الامتعة فيما تغسلين الثياب».
وانكبّ على عمله حتى بدا كأنه لا يسمع قولها:
«اشكرك».

ووقفت ليا خلف اجمة كثيفة لتخلع ملابسها الخارجية وترتدي القميص، التي شابهت رداء طويلاً غطى سترتها الداخلية ووصل الى وسط جنبيها. ثم ثنت كميها وبدأت تغمس الملابس في الماء وتفركها حتى تنظف من دون الاستعانة بسائل مطهر.

ورأت أخيراً ان الملابس اصبحت نظيفة قدر ما ترغب به في هذه الظروف. ومسحت حبات العرق عن جبهتها وشفتيها بمؤخر يدها. ثم حملت الثياب المبللة لتنشرها على شجيرات لتمحها الشمس عند طرف موقعها الظليل.

وقالت في نفسها ان الشمس كانت ستجففها في دقائق. وفور خروجها من الظل احرقتها اشعة الشمس اللاذعة. وتزايد تصبب العرق بين كتفيها وهي تبسط الملابس على الشجيرات الصغيرة. وتطلعت الى البركة، التي يزيد حجمها ثلاثة اضعاف عن حجم حوض الاستحمام. وتراجعت الى الظل:

«رايلي، هل هناك خطر من ابتلال ذراعي؟».

أجاب دون ان يرفع نظره:

«ولماذا؟ هل ابتلت؟».

ردت ليا بسرعة:

«كلا. ولكن ان لم يكن هناك خطر من ابتلاله، فأنا اشعر برغبة في الاستحمام».

«الأفضل ان القي نظرة عليها اولاً».

ولما رفع رأسه، رمقها بنظرة اعجاب.

فأدارت ظهرها له لتخرج ذراعها اليسرى من الكم المطوي وتلف قميصها كالعباءة حولها.

وقف رايلي ليفحص جرحها وقد التمعت عيناه الخضراوان سخرية من تصرفها. ولمس جلدها بجفاء وبرود. ثم نزع الضماد عنه.

وعلق وهو يرد الضماد الى محله:

«هل تعلمين ان الجرح سيبرأ في موضعه؟».

هزت ليا كتفيها:

«هذا لا يهم».

وحرك صدر رايلي البرونزي اهواء ليا المختلفة. فحاولت كبت رغباتها ودفعت رأسها الى الوراء لتتأمل وجهه:

«هل هناك خطر من ابتلال الجرح؟».

وتسمر نظره على ثغرها لحظة احست فيها ان قلبها توقف عن الخفقان، وانها تميل نحوه توقاً الى لمساته. ورأت عقده الفيروزي والفضي يتألق على عنقه الأسمر. الا انه ابتعد عنها برشاقة قائلاً:

«لا اظن ذلك. ولكن لو كنت مكانك لحاولت الا ابلل الضمادة. فلا داعي للمجازفة في هذه المرحلة. والبركة، في اي حال، ليست عميقة. واذا لم تنزل قدمك، لن تنجحي في منع الضمادة من الابتلال».

عقدت ليا جبينها بفضول:

«كيف يمكنك ان تقول انها ليست عميقة؟».

اكب رايلي على الفخ. وهو يقول بمكر:

«هل تذكرين اني غطستك فيها مرة لاخفض درجة حرارتك؟ كما اني استعملتها انا نفسي بضع مرات في الصباح الباكر قبل ان تستيقظي».

وزال تعجبها من نشاطه الدائم ومناعته ضد قسوة العيش. ولم تجد ضرورة للتعليق على تلك الحقيقة. وقالت بتردد وحياء:

«سأحرص على الا تزل قدمي».

ثم نزلت الى البركة. ونظرت الى خلف لتجد رايلي يدير ظهره لها، ولم تعرف اذا كان ذلك عملاً متعمداً او غير مقصود ام نتيجة عدم اكتراث، ثم خلعت قميصها ودخلت البركة مستعينة بغصن متدل لتحافظ على توازنها. ولم ترتفع المياه فوق خصرها حتى عند طرف البركة حيث تصل الماء الى اقصى عمقها وتدنت درجة حرارة

المياه هناك عن بقية البركة مما جعل ليا تظن انها اقتربت من مدخل النبع.

وارتبكت حين حاولت الابقاء على ذراعها خارج الماء وهي تغطس شعرها والجزء الأعلى من جسمها فيه. وبرغم بطء العملية، فإن الماء كان بارداً ومنعشاً. ولعبت بالماء فرشته على جسمها وزحفت نحو الضفة حتى لا تترنح وتقع. ولما انتهت كان رايلي لا يزال يصلح الفخ. فجففت جلدها من الرطوبة بسرعة بالقميص الذي كانت ترتديه. وتخلصت من الماء الزائد في ملابسها الداخلية. فيما جفت باقي ملابسها. ووضعت ليا القميص المبلل عليها. ثم عادت الى الشجيرات لتجمع الغسيل ولبس ثيابها بسرعة. وكانت مواضع الدرز في بطانتها لا تزال رطبة. وقد خففت رطوبتها ورطوبة ملابسها الداخلية من جفاف الملابس الخارجية ودفئها.

عادت الى وسط المخيم وهي تقول لرايلي:

«تفضل. هذا هو قميصك».

«أدار رأسه تجاه القميص فيما ظل منكباً على الفخ المتلف:

«ضعيه فوق المظلة».

فعلقت ليا ياقة القميص فوق احد العمودين.

«ألم تصلح هذا الفخ بعد؟ فأنت تعمل فيه منذ الظهر».

اجاب من دون اكتراث:

«مهما تكن الطريدة التي وقعت في هذا الفخ، فإنها ظلت تقرضه طوال الليل».

جثت ليا بجانب امتعتها القليلة تقلبها بعصبية. واخيراً استندت على عقبيها ونظرت الى رايلي تسأله:

«هل تعرف أين هو المشط؟».

«في صندوق الطعام».

عثرت عليه. وبدأت تسرح شعرها المعقد. ووجدت ان الشمس لطخت شعرها الكستنائي ببعض الخطوط البيضاء مما زاد اللون

الذهبي فيه. وبينما هي تمرر المشط في شعرها، رأت ظلاً يتحرك فوق منحدر جبل بعيد.

لم يظهر خلال اليومين السابقين اثر لطائرة استطلاع. وواضح ان رايلي لم يلاحظ اثراً شبيهاً من قبل، والا لكان اخبرها.

تذكرت ليا والدها الطيب العابس والمستقيم الذي لا يخطئ. وتذكرت تناقض شخصيته المتحفظة مع شخصية امها الدافئة والصريحة التي ساعدتها على اكتساب الأصدقاء الجدد في كل مرة تنقل زوجها فيها الى مكان جديد.

والمحتمل ان يكون والد ليا قد قوم احتمالات بقائها على قيد الحياة بعد مرور تسعة ايام على تحطم الطائرة بها في الصحراء، وخشي انه يعتبرها في عداد الموتى.

وهو لا شك يجهد نفسه في تعزية امها. اما معرفتها بطبعه، فتؤكد انه لن يوقف البحث عنها قبل ان يجدها لأنه لا يؤمن بالأقدار مثل والدها.

وحسابات والدها لن تأخذ في عين الاعتبار وجود رايلي. وهو لا يمكن ان يكون على دراية بمعرفة رايلي الواسعة بالصحراء وقدرته على العيش في ظروف صعبة وبدائية.

وافتر ثغرها عن ابتسامة وهي تتصور رد فعل والديها فيما لو اتيحت لهما فرصة مراقبتها في هذا المشهد حيث جلس رايلي يحاول اصلاح فخ متلف ليلتقط به وجبتها التالية، في حين سرحت هي شعرها بعد ان غسلت ملابسها في الساقية واستحمت في البركة.

وكانت عقارب الساعة ترجع مئة سنة الى الوراء. فالأمتعة الحديثة القليلة التي كانت في حوزتها لم تعد مصباحاً وكمية من الطعام المعلب ومسدساً وسكيناً. اما بقية الأمتعة من قدر واطباق وملاعق وافخاخ ومظلة، فكانت من صنع ايديها.

ورفض رايلي فيها وقد تحول وجهه جانباً بعد ان ارتسمت عليه امارات الفضول:

«ولماذا تبتسمين؟».

اتسعت ابتسامتها المتعبة:

«كنت اتخيل دهشة والدتي لو اتيحت لها فرصة مشاهدتنا الآن ونحن نعيش هنا في هذه الصحراء».

فهز رأسه متفهماً. ثم تفحص السماء قبل ان يعود الى اصلاح الفخ. وابعد تصرفه البسمة عن وجه ليا. فقالت:

«لم يعد هناك امل كبير في ان تعثر علينا طائرة. وعلينا الآن ان نخرج من هنا مشياً على الأقدام؟».

اجاب وهو يبتسم بوضوح:

«اجل».

وتحولت بنظرها الى الوادي الشحيح بنبات الناصية والى ما يحيط به من الجبال. وبدا الوادي مترامي الأطراف. وعجزت ان تتصور ان في مكان ما وراء الأفق تمتد طريق عامة معبدة تسير عليها السيارات والشاحنات وتحف بجنباتها البنايات والمنازل المزودة بالماء والكهرباء واجهزة تكييف الهواء. واحست ان عالم الأمس فيما في الزدان بأنوار النيون هو مظهر من مظاهر الخيال في هذا القفر الرائع.

وبينما هي تسرح شعرها علقت اسنان المشط بعقدة في مؤخرة رأسها. وحاولت تخليصه منها وهي تصيح ألماً. فرنت من رايلي نظرة لدى سماعه الصوت. واجابت على السؤال الصامت في عينيه الخضراوين:

«لقد عششت العصافير في شعري».

واستمرت تحاول فك عقدة شعرها وهي تراقب رايلي ينصب الفخ ليختبر فاعليته بعد اصلاحه. وفور ان ضغط عليه انقطع حيث تم اصلاحه فجمعه رايلي والقاه في النار.

واقترحت ليا اذ رأت الفخ يشتعل:

«الم يكن بامكانك اصلاحه؟».

هز رأسه سلباً:

«لا بد ان تفي الافخاخ الثلاثة الاخرى بالغرض».

ورمقها بنظرة جانبية، فلاحظ صراعها مع المشط. وقال:

«هل تحتاجين الى مساعدة؟».

تنهدت بيأس وهي تفرك موضع الألم في وسط رأسها، الناشىء عن شد شعرها تكراراً:

«ارجوك. فأنا لا استطيع ان ارى ماذا افعل. اني لا اكاد المس موضع العقدة».

فنهض وسار نحوها. واخذ المشط من يدها. وجثم بجانبها. وفك عقدة شعرها بعناية فائقة. ثم سرح بقية الشعر حتى انسدل على كتفيها. ورد المشط اليها. وطلبت في محاولة لابقائه قربها:

«هلا سرحت بقية شعري لكي اتأكد من خلوه من عقد اخرى؟».

الا ان صوتها الراعش كشف عن رغبتها الخفية، فأجاب رايلي بعبوس وثبات:

«كلا، يا ليا».

والتفت اليه التفاتة جانبية، وقد عبرت عيناها البندقيتا اللون الواسعتان عن شوق شديد للمسته. ولم تفارق عيناه الخضراوان ثغرها الحلو. لكنه ما لبث ان حولها الى عينيها متمتماً:

«تلعبين لعبة خطرة يا ليا».

بلعت ليا ريقها بصعوبة. ثم تحدثت بصوت بالغ الهدوء:

«اعرف. ولكن. . .».

علق رايلي بوضوح:

«وضعنا يوفر من الاغراء ما يكفيك عناء المحاولة».

فحولت ليا نظرها واخفضت ذقنها اعراباً عن الموافقة. ومع ان ذلك لم يرض رغبتها الجامحة، اعترفت:

«طبعاً انت على حق».

واحتضنت يد سمراء ذقنها ورفعتها. والتمع الشوق في جفونه

السوداء الكثيفة وهوى الى وجهها المرفوع:

«كان لزاماً علي ان ارحل هذا الصباح طلباً للنجدة».

ولامست وجنتها اصابعه فيما رفت جفونها بسرعة تأثراً بلمسته الساحرة:

«كنت سألحق بك».

«اعرف ذلك».

وارتسمت فوق شفتيها ابتسامة رقيقة. ومال برأسه نحوها بفعل قوة خارقة. فعانقها بينما شعرت ليا بسعادة عارمة طارت بها الى عالم رحب الآفاق، حيث احست ان رايلي يحلق قربها.

وفجأة استلقى رايلي على جنبه وهو يمسكها بأحد ذراعيه ويشدها الى صدره. وهبطت من عالمها الروحاني ببطء شديد. وعجزت عن التكلم لبضع دقائق. ثم همست بصوت غلبته رعشة دافئة:

«رايلي».

احتضن وجنتها بيده فيما وضع ابهامه على فمها محاولاً اسكاتها وهو يهمس بصوت بدا فيه الصراع مع رغبته الجسدية:

«ليا، اصمتي».

كان من السهل عصيان امره واقناعه بالعناق. وراودها شعور بذلك. بيد ان الشك لم يرق الى صواب منطقه. فاستلقت على ذراعه بلا حراك الى ان شعرت باسترخاء عضلاته المتشنجة، وادركت انه سيطر على نفسه تماماً. وقال بهدوء:

«حدثيني عن صديقك».

ما زالت جفون ليا مغمضة وقالت:

«من هو؟».

«مارفن الذي كنت تلتقينه وتخرجين معه».

قطبت جبينها وهي ترجع رأسها الى الوراء لتتأمل ملامحه الداكنة:

«من اخبرك عنه؟».

لم تبلغ نظرتها عينيه:

«سمعتك تتحدثين عنه وانت تهذين من الحمى».

والغريب انها لم تتذكر شكل مارفن. وخيل اليها انها لم تره لسنوات. فامكنها ان ترسم صورة لرجل حقير هزيل تعوزه الحيوية والرجولة الطاغية على رايلي الذي امسكها بذراعه. ثم اجابت من دون اكتراث:

«انه يعمل معي في المصرف. خرجنا معاً بضع مرات عدا صفته صديقاً. ولكن، ماذا قلت عنه؟».

«لا شيء».

صدقته اذ لا يسعها القول سوى ان مارفن لطيف ويحب امتلاك اصدقائه على نحو مثير. ودفعتها الغيرة الى موضوع شبيه، فالحت:

«حدثني عن صديقتك».

فأجاب بسخرية وهو ينقلب على ظهره ويحدق الى زرقة السماء الباهتة:

«لا اعتقد ان هذا الوصف مناسب».

واحست بالألم في داخلها، فقالت بمرارة:

«حدثني عن عشيقتك اذن. قل لي هل هي... هل تعيش معك؟».

امال رأسه لينظر اليها وهي مستلقية على ذراعه. وامتزج سواد شعرها باخضرار العشب. وقال بجفاء:

«انا اعيش بمفردي، عملي هو سيدي وسيدتي. صحيح انني صادقت عدداً من النساء، ولكن ليست لي صديقة معينة».

كان يفترض ان يرضيها جوابه. ولكن عوض ذلك شعرت بالسخط. ومرت بضع ثوان قبل ان تعرف السبب. فجوابه يصنفها في مرتبة النساء الاخريات. واحست بغصة في حلقها. وهمست وهي ترغب ان تغير موضوع الحديث:

«قلت... قلت انك تعيش في لاس فيغاس. اين يقع منزلك؟».

«يقع منزلي في التلال خارج المدينة».
وحاولت ليا ان تظهر عدم اكتراثها:
«ولماذا . . . لماذا اخترت لاس فيغاس؟».
«انها مناسبة لعملي. فهي لا تبعد كثيراً عن المناجم او اسواق البيع في كاليفورنيا واريزونا».
«هل تقضي وقتاً طويلاً في منزلك؟».
«اجل».
ورفعت ليا رأسها الى الوراء لتنظر الى وجهه وهي تبتسم بشجاعة رغم الدموع التي تحاول الافلات من عينيها:
«هل اراك عندما نعود الى لاس فيغاس؟».
ساد الصمت لحظة شحنت بالترقب والانتظار. وعجزت عيناها الفاحصتان عن كشف شيء قبل ان يجيب وهو يختار كلماته بعناية:
«اظن اننا سنحتفل بعودتنا سالمين بتناول العشاء معاً ذات مساء».
كان ذلك افضل من عدم التلاقي. فوافقت مشيحة بنظرها وهي تلمسه:
«اتمنى ذلك».
وقبض على ساعدها ودفع يدها بعيداً. ثم ثبت ذراعيها فوق رأسها وهو يرفع وجهه لترى الغضب يتطاير من عينيه فيما صاح:
«لا تفعلي ذلك. هل تظنين اني مصنوع من حجر؟».
ادركت ان عليها ان تخاف من غضبه المكبوت. الا انها لم تفعل:
«آسفة يا رايلي. لكنني لا اقدر ان اتمالك نفسي. لا . . .».
وافلتها بسرعة لينتصب واقفاً وقد قطب جبينه.
«بل، انك تستطيعين. فانت تعرفين تماماً كما اعرف ماذا يجري بيننا».
واستدار مبتعداً وهو يفرك عنقه بعنف:
«تعرفين اننا عشنا لوحدنا فترة طويلة بدا معها العالم الذي كنا فيه قبل ان تتحطم طائرتنا بعيداً. لكننا سنعود الى ذلك العالم. ومن

عندها، فإن الأيام التي قضيناها معاً تغدو حلماً وخيالاً لا اساس له من الواقع».
علقت ليا بصوت مفعم بالفضول:
«هل تعتقد ذلك؟».
اما هي، فلن يغير عالم الاسمنت الذي ستطأه بقدميها، حبها له.
واجاب بصراحة حتى لا تجادله:
«هذه هي سنة الحياة».
ثم اسرع نحو المظلة ليلتقط قميصه المعلق على احد عموديها.
«سأذهب لاتفقد الافخاخ».
راقبت ليا رايلي يبتعد. وفكرت بمعنى كلامه. هل قصد القول بأن من الخير ان لا تحبه لانه لا يحبها؟ ثم التقطت المشط من المكان الذي القاه فيه. وبدأت تمرره في شعرها وتضرب به وسط رأسها لتقضي على القشعريرة التي طغت عليها.
لم يترك رايلي ليا وحيدة ويرحل طلباً للنجدة. الا انه لم يعد مع الغروب علماً بأنه لا يمكن ان يكون قد ضل الطريق اثناء تفقده الافخاخ المنصوبة بعيداً عن البركة وذلك بفضل معرفته الواسعة بالصحراء.
ولما حل الغسق امسكت ليا بالفانوس باحكام. وصممت ان تخرج للبحث عنه اذا لم يعد عند ملامسة الشمس حافة الجبل. واضافت قطعة حطب الى النار، ثم نظرت الى الجبل.
ورغم انها لم تسمع اي همس، فإن شيئاً دفعها لكي تستدير. ورأت رايلي يقف عند الظلال الرقيقة التي القتها اشجار الصفصاف بعد ان عاد الى المخيم بصمت اجداده البدائي.
ولم تدرك ليا كم انتظرت رجوعه الا حين رأته يعود. واربكها الفرح وتعبير وجهه المفعم بالجفاء والاعراض. فلم تلق نفسها بين يديه. وتأملها بغضب حتى استقرت نظرته على المصباح في يدها. فقالت مرتجفة:

«كنت . . . كنت انوي ان ابحث عنك لاني توقعت ان يكون قد اصابك مكروه ان لم تعد مع غياب الشمس».

لم تتبدل تعابير وجهه وهو ينتزع المسدس من وسطه ويعيده الى صندوق الاسعافات الأولية. ثم تهادى نحو النار.

ولما لم يبرد رايلي غيابه، سألته ليا:

«اين كنت؟».

لم يبد عليه اي اثر للتعب. غير ان حبات عرق علقت على قميصه. واخذ جوده منها كل مأخذ.

ثم تناول جرعة كبيرة من القنينة وهو يتحاشى عينيها الفاحصتين:

«كانت الافخاخ خالية ولم اوفق في اصطياد اي طريدة».

احاطت ليا نفسها بيديها اتقاء لهجوم اليأس المباغت. ثم نظرت الى النار:

«لست جائعة».

الا انه قال بثبات:

«لكنك ستأكلين في اي حالة».

تنهدت. ثم ضحكت بمرارة:

«اجل. فعلي ان استرد قواي، اليس كذلك؟».

تحدق الى جسمها للتكور:

«بلى».

نظرت ليا الى وجهه الهادىء الذي ينم عن عدوانية الرجال. لقد طال شعره الأسود منذ حادث التحطم، وتجعّد فوق ياقته القصيرة. وكان قميصه مفتوحاً يكشف عن صدره البرونزي الصلب. وتماوجت عضلاته وهو يسد القنينة. فعصفت بليا رغبة جارحة للمسه. وقالت بصوت ينبض بالشوق:

«رايلي. . .».

هل صوّر لها خيالها ان وجهه زاد شحوباً؟ ام كان ذلك حقيقة؟

وتقلصت احدى عضلات وجهه دون ان يلتفت اليها. وابتعد عن النار:

«سامليء القنينة ليا تقررين اي نوع من المعلبات تعدين الليلة».

دفعت حركته ليا للوقوف:

«لست جائعة الآن».

واسرعت بلهفة بينما ربض بجانب البركة تاركاً القنينة تطفو على سطحها.

«هلا اصغيت الي يا رايلي؟ انا احبك».

واحست انها كانت ستنفجر لو انها اخرت اعترافها.

لم يثر قولها اي ردة فعل، حتى ان جفنه لم يرف. وظل يراقب الماء ينساب في القنينة. لكن، كان على ليا ان تفهمه انها تعني ما تقول. واضافت بسرعة:

«اعرف انك تظن ان الانشداد الحسي بيننا هو نتيجة طبيعية لوضعنا الراهن. فقد عشنا وحيدين معاً بضعة أيام في تكامل ومودة. وبذلك تخطينا اعراف المجتمع التقليدية. ولكن يا رايلي ليس الانشداد الحسي هو كل شيء بيننا. فأنا احبك. واقول لك ذلك الآن. وسأقوله بعد عودتنا الى حياة المدينة. ولن يغير شعوري هذا اي شيء».

شد القنينة ليقف ويعلن بجمود:

«سنرحل في الغد».

اهتز رأس ليا وانحنى من ردة فعله غير المنتظرة.

«ظننت. . . ظننت اننا سنبقى. . . يوماً او يومين آخرين حتى. . .».

واجهه رايلي جملتها دون ان يتطلع اليها:

«حتى تصبحين اقوى. فكرت قبل عودتي الى المخيم ورأيت ان لا هدف من تأجيل رحيلنا. واعتقد انك تعافيت بشكل يسمح لك بالسفر. وسأحاول ان اقتصر الامر».

هزت شعرها الذي صبغته الشمس بعجز:
«هل . . . هل سمعت شيئاً مما قلته؟».
لمحت في عينيه قسوة وسخرية وهو يجيب:
«ماذا تتوقعين ان ارد على ما قلته؟».
ماذا توقعت؟ لم تعرف لفرط ما اذلت. لم تظن انه سيقر فجأة بأنه يحبها. الا ان مغالاته في عدم الاكتراث بما قالت مزقها شر تمزيق. وكل ما عرفته انها رغبت في رد اذاه بأذى آخر.
ورفعت يدها بسرعة خاطفة لتصفع راحتها خده النحيل بعنف. فاستشاط غضباً. وامسكت اصابعه يدها بقوة وكأنه يعاقبها ثم لوى ذراعها الى الخلف حتى كادت تحس ان يدها كسرت. وصاحت مذعورة:
«انك تؤلمني».
ابتسم برضى:
«حقاً؟».
ثم حول ضغط اصابعه من دون ان يخفف الألم الشديد. وجذبها اليه. فلامس وركاها فخذيه العضليين. وراحت يده الاخرى تلف شعرها بقسوة حول اصابعه وتدفع رأسها الى الوراء. واستسلمت لما امام عنف رايلي. وحاولت ان تداعبه. الا انه دفعها عنه بشدة، وراح ينظر اليها باحتقار وهو يتنفس بصعوبة. وقال بلهجة جارحة:
«لن تفلحي في دفعي الى الاغتصاب».
صاحت:
«انا؟».
اغرورقت عيناها بالدموع. ولم تجد ما تقول. فالاهانة بالغة.
وعاد الدم يجري في شرايين ذراعها التي لواها رايلي. ولما حاولت ان تزرر بلوزتها، وجدت ان معظم الأزرار قد تقطعت فقال لها:
«لقد اتلفت ملابسك وعليك ان تلبسي احدى قمصاني».
وبشت اصابعه شعره الكثيف الاسود فيما سار بسرعة ليحضر

القميص التي لبستها لما كرداء من قبل. ثم دفعها اليها متجنباً النظر الى عينيها الدامعتين مباشرة:
«سابدأ تهيئة العشاء».
اطبق الصمت على المخيم. وتناولت لما عشاءها وقد احدودبت كتفاها لاحتواء الألم. ولشدة غضبها لم تحاول ان تقطع الصمت لانه لم يشبه الصمت بين غريبين بل صمت عدوين متخاصمين متنازعين.
ولما حل الليل، تدثرت لما بالبطانية من دون ان تسأل رايلي اذا كانت هناك ضرورة للنوم الباكر استعداداً للرحيل في الغد. وقد ادركت انه لن يجعلها تتوسد ذراعيه اثناء النوم.
سال الدمع على وجنتيها بينما ادارت ظهرها للنار ولرايلي. ومع انه جرح كبرياءها، جرحاً بليغاً، فإن مشاعرها تجاهه لم تتغير. وهي لا تزال تحبه كما كانت. ولن يغير ذلك شيء.
والتمعت نجمة في السماء كالسهم. فراقبتها لما الى ان حجبتها الدموع المتلألئة في عينيها. ثم شدت البطانية حول كتفيها. الا ان قلبها كان مصدر البرد والقشعريرة.

٩- اللقاء

ابيضت اصابع ليا الممسكة بالعصا، وشعرت بغصة في حلقها وهي تلقي نظرتها الأخيرة على الواحة التي شهدت اعلان حبها.

وامتدت فوق البركة ظلال كثيفة مع خيوط الفجر الاول. فبدت البركة مظلمة وغامضة وكأن ابواب الفردوس اغلقت خلف ليا. ستخمد نيران المخيّم. ويتبعثر الرماد. ولن تلبث ريح الصحراء ان تمحو كل اثر لوجودهما، فيما تعود البركة ملكاً لحيوانات الغابة.

قال رايلي بعدم اكتراث وهو يهز كتفيه ليصحح وضع الحزمة المشدودة الى ظهره:

«هيا بنا».

هزت ليا رأسها موافقة. ثم ادارت ظهرها للمشهد مرغمة. وتحاشت النظر الى عينيه الخضراوين كلما استطاعت ذلك لان الجليد فيهما اربكها.

لم يشاطرها رايلي الحزن عندما غادرا المكان حيث عاشا فترة قصيرة من التقارب النفسي والحسي. كانت اسرة ليا تنتظرها في آخر الطريق. ولكن ليا ادركت في قرارة نفسها انها لو خيّرت، لبقيت هنا مع رايلي. ولو ان تلك كانت عاطفة خيالية تفتقر الى المنطق والتعقل.

لكنها احبته؟ الله كم احبته؟

وتقدم رايلي المسيرة كالعادة. الا ان خطوته كانت ابطأ من ذي قبل. وادركت ليا انه فعل ذلك للاحتفاظ بقوتها. لم تثقل كاهلها اي حزمة هذه المرة اذ حمل رايلي كل امتعتها.

ولم تتعب ليا خلال ساعات السير الاولى، التي تخللتها محطات استراحة طول الواحدة منها عشر دقائق، بسرعة كما توقعت. ثم

بلغت الشمس ذروتها. واخذت حرارتها تلفح ظهر ليا.

اقام رايلي مخيماً جديداً وسط الوادي الصحراوي على جانب الطريق المتآكل الذي سارا عليه اميالهما الأخيرة. واستلقت ليا متعبة تحت المظلة. ثم رشفت بعض الماء قبل ان تغمض عينيها.

انعشتها القيلولة بعض الشيء. وقبل ان يستأنفا السير سأل رايلي ليا ببرودة عن صحتها. فاجابت بعدم اكتراث:

«انني بخير».

شعرت بالتحسن مؤقتاً. لكن الوهن اصابها بسرعة اكثر من الصباح. كانت اسنانها تصطك مع كل خطوة مشتها. وخيّل اليها ان محطات الاستراحة التي تمتد كل منها عشر دقائق بدأت تقصر.

وشعرت بالضعف يداهمها، الا انها سارت وهي تشد على اسنانها.

ولم يبتعد رايلي عنها غير خطوات قليلة. وحثتها خطواته الرشيقة على متابعة السير وهي تفكر انها تعيقه. فلولا وجودها معه لكان قطع مسافة اطول. وادركت بأسى ان رايلي صمم ان يحصل على المساعدة، والا يقضي معها ساعة واحدة اكثر مما يجب.

اصطدم كاحل ليا بحجر، فوقعت على ركبتيها. ومدّ يده تمسك بذراعها لتساعدها على النهوض. فانتزعت يدها من قبضته، وانتصبت واقفة وهي تقول بحدة:

«استطيع ان اقف معتمدة على نفسي».

ونفضت ليا الرمل العالق براحتيها على بنطالها. وتأملها ببرودة:

«هل اصيب كاحلك؟».

تفحصت ليا كاحلها بحذر شديد حيث احست الماً بسيطاً:

«هيا بنا، فانه بخير».

وأعطاها رايلي العصا التي رمتها. ثم تابعا السير.

وقبل غروب الشمس توقفا ليمضيا الليل. وارتمت ليا على الطريق المتآكل متعبة وهي تسند رأسها على ركبتيها المنهكتين. ودفع رايلي القنينة اليها فيما تخلص من حمله. وارتجفت يداها من شدة التعب.

ولم تستطع ان تثبت القنينة على شفتيها دون ان يضيع الماء. واخيرا اضطر رايلي ان يضعها بنفسه على شفتيها.

اخرج رايلي قطعة لحم مقدد من الحزمة:

«لا يوجد عندنا ماء يكفي لتحضير وجبة طعام معلبه».

دفعت ليا قطعة اللحم بعيداً عنها:

«لست جائعة».

وامرها:

«هيا كليها».

فاخذتها ليا مرغمة وهي تتذمر:

«انني منهكة للغاية».

«سأذهب لابحث عن شيء اشعل به ناراً».

مضغت ليا قطعة اللحم بتعب. وانتهت من تناولها قبل عودة رايلي. فتمددت على الارض الصلبة غير المستوية. ولم تفتح عينيها عندما سمعت خطوات رايلي الذي دثرها بالبطانية. كانت ليا متأكدة ان الالم في عضلاتها لن يجعلها تشعر ببرد الليل. ثم سمعت رايلي يشعل ناراً، فتوقعت انه احضر وقوداً. وما هي الا لحظات حتى تقززت من رائحة مادة نتنة كانت تشتعل.

وانقلبت على ظهرها وهي تضغط على انفها وتنظر الى رايلي:

«ما ... ما هذا؟».

«لم اجد حطباً. لكني عثرت على بعض روث البقر. رائحته كريهة، لكنه يشتعل. ونحن بحاجة الى نار تدفئنا بها».

شدت ليا البطانية فوق رأسها لتحاول التخلص من الدخان ذي الرائحة الكريهة. وانساها التعب ما حولها حتى انها لم تتذكر غروب الشمس. امسكت يد بكتف ليا، فافاقت مرغمة وقد غشي نظرها من النوم العميق ورأت عند رأسها حذاء عليه ازدان سروال متسخ. وارتفع نظرها الى البزة المتناسقة التي غطت فخذي رايلي العضليين ووركيه وخصره وكتفيه العريضتين. ثم التقت عيناها بعينيه

باضطراب:

ومع انها رأت نور الصباح، تذمرت:

«لا يمكن ان يكون الفجر قد بزغ».

قال رايلي بثبات دون ان يمد يدا للمساعدة:

«هيا. انهضي».

احست ليا بتشنج في عضلات رجليها ومفاصلها. ولاحظت بعض آثار التعب على رايلي. فتعزت بعض الشيء.

وضع رايلي الحزمة على ظهره في غضون دقائق. ثم استأنفا السير. ولم ترتخ عضلاتها المتشنجة، بل ازداد المها مع كل خطوة خطتها. وزاد اعتمادها على العصا لتحافظ على توازنها حين كادت ركبتاها تنثنيان.

وفي محطة الاستراحة الثانية لم تجرؤ على الجلوس خشية الا تتمكن من النهوض. والقت بثقلها على العصا لا فاق تعبها قدرتها على الاحتمال. ونطقت بصعوبة وبطء لا يصدقان:

«كم علينا ان نسير بعد؟».

امسكت يدا رايلي بذراعيها، واجلسها:

«لا ادري».

واعترضت ليا بعد ان جلست:

«اخشى الا اتمكن من النهوض».

وتمدد جسمها تلقائياً على الارض الصلبة فيما ارتخت عضلاتها من الارهاق. اجاب:

«انك بخير».

وحبس ضيق نفسها ضحكتها:

«صحيح؟».

وتحركت جفناها بثقل. ولما فتحت عينيها، رأت رايلي يجثم بقربها ويضع على شفتيها سيكارة مشتعلة. ويبتسم برقة:

«هذه آخر سيكارة لدينا. وعلينا ان نتقاسمها».

امسك رايلي السيكارة بينما اخذت هي نفساً طويلاً من طرفها المزود بالفلتر. وكان تصرفه مناسباً لان ليا شكّت بقدرتها على امساك السيكارة. ونفث الدخان باعياء:

«اشعر كاني رجل يحتضر ويدخن سيكارته الأخيرة».

اعطاها نفساً آخر من السيكارة:

«استريحي ولا تتكلمي».

وفيما احست ليا اصابع رايلي تلمس شفتيها، استغربت ان يكونا قد تحدثا في هذه الدقائق اكثر مما تحدثا في نهار الأمس بكامله. هل بلغ التعب بهما حداً انساهما التنافر؟

وبعد ان سحق رايلي السيكارة بحذائه في الرمل، اوقف ليا. ولم تستطع ان تمنع نفسها من الاتكاء عليه باعياء. لكنه ابتعد عنها، وسندها بيديه لا بجسمه. وادركت انها لا يعطيها كل [illegible] ووضع العصا في يدها، فالقت بثقلها عليها.

[illegible] فان ليا [illegible] بجهد كبير مع كل خطوة [illegible] وكانت [illegible] تصرخان من الارهاق. الا ان [illegible] [illegible] على [illegible] قدميها.

وتوقف رايلي بعيداً عنها. ثم صاح بصوت ملأته الحماسة:

«انظري».

وقفت ليا بجانبه تحاول التركيز بنظرها على الجهة التي حدّق نحوها. لكنها لم ترَ سوى ارض منبسطة مترامية الأطراف غطاها نبات الناعمة. واتسع المرّ الجبلي ليزيدها امتداداً.

ولما لم ترَ شيئاً يعطيها قبساً من الأمل، سألت بصوت مبحوح:

«اين؟»

ركّز بصره على النقطة البعيدة:

«ان لم اكن مخطئاً، فاني ارى بيوتاً زراعية هناك الى اليمين قرب سفح الجبل».

ولم تستطع ان تتبينّ سوى مربعات سوداء. ودهشت لانه تمكن

من رؤيتها اصلاً. لم سوى رايلي احزمة حمله للوقت، ونظر الى ليا:

«هيّا بنا».

خيّرا [illegible] في الارض المفتوحة قاصدين البيوت. واعطى الأمل بالحصول على المساعدة في هذه المنازل ليا دفعة جديدة من النشاط. ولكنها سرعان ما تبخرت آخذة معها ما تبقى لديها من قوة وتماسك. وغدت رجلاها واهيتين كالمطاط الطريّ، وخذلتاها فجأة، حتى ان العصا التي توكات عليها، لم تسندها. ووسط حالة من الاعياء احست ليا بيدي رايلي ترفعانها، فتنهدت:

«لا جدوى. فانا لا اقدر ان اسير اكثر».

قال بثقة:

«بلى تقدرين».

اوقفها واضعاً ذراعيها حول عنقه وعلى كتفيه فيما طوّقت [illegible] الاخرى خصرها. ثم تابعا السير [illegible] على ليا وجرّها، [illegible] ان تمشي [illegible] الا ان [illegible] [illegible] [illegible] ثانية على رايلي [illegible] على ذراعه بينما [illegible] رأسها على كتفه. واحست انها اشبه [illegible] من [illegible] و[illegible] رأسها يدور في حالة من الذهول والاعياء. وشعرت في غيبوبتها بالاجهاد الذي اصاب عضلات رايلي نتيجة حمله لجسمها الثقيل. فطلبت منه:

«اتركني يا رايلي».

رفض بدون تحفظ:

«كلا، لن اتركك».

لكن موجات الوهن انتابتها وشلّت قدرتها على الاعتراض. فضاعت من رشدها، وكادت تنسى الذراعين اللتين حملتاها اثناء السير.

واخيراً انفتحت عيناها لدى سماعها نباح كلب حاد. ونظرت الى

كتف رابلي، ثم ادارت رأسها قليلاً لتتمكن من التطلع الى الامام.
وثقلت خطوات رابلي بسبب الكلب الضخم الذي اعترض طريقهما. ووقف خلفه بيت ابيض من الغبار المتراكم عليه. واُسدلت على نوافذه ستائر فيما نشر في ساحته بعض الغسيل.

وانغلق باب الشريط النحلي الموضوع على بوابة البيت بعنف. وسمع صياح امرأة تنادي:

«لايدي. تعال الى هنا».

توقف الكلب عن النباح. ثم تراجع الى البوابة. وخرجت المرأة من دائرة الظل وهي تقي عينيها من بريق الشمس فيما تعلقت طفلة برجليها. وقالت بمودة ولطف:

«من انتما؟».

وقف رابلي على بعد بضعة اقدام من البوابة والكلب. ثم قال بهدوء:

«تحطمت طائرتنا في الجبال قبل احد عشر يوماً، وزوجتي تحتاج بعض الماء والراحة. هل نستطيع الدخول؟».

هتفت المرأة:

«اجل. اجل».

ثم صفقت للكلب وأمرته أن يذهب، وقالت:

«أبلغنا انا وزوجي بالحادث. لكننا لم نعرف ان الطائرة تحطمت في مكان قريب من هنا. تفضلا. تفضلا بالدخول».

لم تسمع ليا معظم كلمات المرأة لان كان قلبها لا زال يخفق لعبارة رابلي «زوجتي». تأملت بيأس، عينيه الخضراء اللون ووجهه القذر المتعب والطافح بالقوة والبأس. هل عنى ما قال ام كان كلامه مجرد مجاز؟

فتحت المرأة الباب فيما ظلت الطفلة متعلقة برجليها:

«هل انتما مصابان؟ هل استدعي الطبيب ام سيارة الاسعاف؟».

«كلا. انه مجرد ارهاق من السير الطويل».

ووقف رابلي داخل الباب:

«اين يمكنها ان تستريح؟».

ادخلتهما المرأة الى حجرة الجلوس:

«توجد في حجرة الجلوس اريكة. تفضلا من هنا. سأحضر بعض الماء».

واسرعت بالخروج من الغرفة. وخلفتها الطفلة كظلها.

ألقى رابلي ليا على الاريكة بهدوء. ثم كوم بضع وسادات تحت رأسها:

«هل انت مرتاحة؟».

ابتسمت بشحوب:

«لا اعرف شيئاً مريحاً كهذا. رابلي...».

لم تكن قد انهت جملتها عندما عادت المرأة وهي تحمل ابريق ماء وبعض الاكواب على الصينية.

رشفت ليا الماء بنهم من الكوب الموضوع على شفتيها. ثم عادت فاستلقت على الوسائد بعد ان استردت شيئاً من قوتها.

تخلصت المرأة من الطفلة المتعلقة برجليها. ثم انحنت نحوها:

«اذهبي الى حظيرة المواشي يا ماري. وقولي لوالدك ان يحضر بسرعة».

ثم استدارت نحو رابلي الذي كان يصبّ كوب ماء لنفسه:

«هل يمكنني ان احضر لكما شيئاً آخر؟ اي شراب أو طعام؟».

نهض عن الاريكة:

«ارجو ان ترشديني اولاً الى الهاتف لاخبر السلطات ثم احضري لنا بعض القهوة السوداء اذا سمحت».

تجاوزت ماري رابلي بحياء. ثم اندفعت خارجاً. واغلقت باب الشريط النحلي بعنف فيما ركضت نحو والدها.

«الهاتف في المطبخ. وانا اعدّ بعض القهوة».

نظر رابلي الى ليا المستلقية على الاريكة:

«ستعافين. وسأتركك بضع دقائق».

طمأنته برقة وقد غمرها دفء الحنان للتمتع في عينيه الخضراوين:

«انا بخير».

ولما خرج رابلي والمرأة من الغرفة، استرخت ليا فوق الوسائد. وبدا غريبا ان تعيش تحت سقف وبين اربعة جدران بعد ان ظللتها السماء والهواء الطلق. الليلة ستستحم في الماء الساخن، وستلبس ملابس نظيفة وتنام على فراش وثير. انها ستفعل كل ذلك.

اسرعت المرأة الى غرفة الجلوس وقد تألقت البسمة على ثغرها. وفجأة بدا وجهها في غاية الجمال بسبب الكلف الذي اكتسبه من شمس الصحراء. وقالت:

«هذه هي قهوتك. انها سوداء وحلوة وساخنة كما طلبها زوجك. لقد اوصى بان تشربيها كلها».

جلست ليا مستعينة بالوسائد. ولما امسكت كوب القهوة بيديها، اكسب الخجل وجهها بعض اللون:

«رابلي ليس زوجي».

كم تمنت لو تقدر ان تقول عكس ذلك. وفوجئت المرأة، لكنها ضحكت لتخفي ارتباكها:

«اعتقدت... اعتقد انني افترضت من دون تفكير انكما متزوجان، آسفة».

واصرت ليا وهي ترشف القهوة وتسترد بعض قوتها:

«لا داعي للاعتذار».

اضافت المرأة وهي تقدم نفسها الى ليا:

«اسمي تينا ادواردز».

اجابت ليا:

«ليا تالبوت».

«لا بد انكما مررتما في محنة».

محنة؟ كيف يمكنها ان تشرح للمرأة انها لم تكن محنة رغم صدمة الحادث والايام التي اصابتها فيها الحمى والهذيان نتيجة التهاب جرحها. لم تقدر ليا ان تصف الوقت الذي قضته مع رابلي بانه محنة. فلقد عاشا حياة رعوية بدائية تتسم بالرضى والطمأنينة. واجابت وهي تختار كلماتها بعناية:

«لم تكن في الحقيقة قاسية الى هذا الحد».

واضافت في سرها ان اليوم والبارحة كانا اسوأ ايام المحنة حين ابتعد رابلي عنها.

ومأت المرأة برأسها:

«استطيع ان اتصور ان السير في هذا الحرّ الشديد مسافة قصيرة يكفي لارهاق الانسان».

واقفل الباب بعنف، ثم هرولت الطفلة الى داخل الغرفة لتقف بجانب امها وتتطلع الى ليا. وسمع وقع اقدام اخرى ثم صوت رجل غريب يتحدث الى رابلي. وقالت المرأة:

«وهذا هو زوجي، عليك وكان يعالج احد الاحصنة في الحظيرة».

رشفت ليا مزيدا من القهوة وبه السكر والكافايين اعصابها. ثم رفعت نظرها عندما دخل رابلي الغرفة بصحبة رجل اقصر منه قامة يلبس نظارة شمسية ويضع على رأسه قبعة من القش يلبس مثلها رعاة البقر.

ارتسمت حول عيني رابلي وفمه امارات الارهاق الشديد. فاستغربت كيف انه لا يزال متماسكا. وقال رابلي بصوت متعب كوجهه:

«تطوّع السيد ادواردز لايصالنا الى تونوبا حيث تستقبلنا اسرتك التي ابلغت انك ما زلت حية ومعافاة».

وسألت:

«وهل سنغادر الآن؟».

«فور انتهائك من رشف القهوة».

رفعت ليا الكوب الى فمها وهي تخفي تنهيدة ندم. لقد منّت نفسها بالانفراد برايلي بعض الوقت. لكنه بدا وكأنه يتحاشى اي فرصة للاختلاء بها. وانفترت في معارضة خططه الى المنطق. لكنها ستتحدث اليه فيما بعد، ولن تدعه يوقفها عن الكلام. ثم رشفت ما تبقى من القهوة، وقالت:

«انا مستعدة».

ولما انحنى رايلي ليرفعها بين ذراعيه، هزت رأسها:

«ما زلت ارتجف قليلاً. لكني اظن نفسي قادرة على السير».

واطبقت اصابعه على كوعها ليساعدها على الوقوف. فترنحت قليلاً، ثم توازنت. بيد ان رايلي لم يرخ قبضته. وكانت لمسته باردة وجافة وهو يقودها الى الباب.

وعندما توقفا امام الباب، ابتسمت ليا:

«اشكرك يا سيدة ادواردز على كل شيء».

وودع بعضهم بعضاً قبل الانطلاق الى السيارة حيث جلست ليا في المقعد الخلفي لكي تتمكن من التمدد والاسترخاء كما قال رايلي. كانت متعبة «فاسترخت». الا ان افكارها ظلت مشوشة تتجه نحو الرجل الجالس امامها. ولم تستطع التركيز على التفكير بترحيب اهلها بها عند وصولها.

وعلى بعد بضعة كيلومترات من البيت اتصل الطريق الزراعي بشارع فرعي يؤدي الى الطريق العام. واسرع مايك ادواردز بحيث لم يمكن رؤية اعمدة الهاتف والكهرباء بوضوح. ومع ذلك، مرّت ساعة او اكثر قليلاً قبل ان يصلوا الى ضواحي تونوبا.

وتوقفوا امام مبنى ضخم مكتب مدير الشرطة. واستفاقت ليا في مقعدها وهي تتأوه من الألم في عضلاتها. واطبقت اصابعها على مسكة الباب. الا ان رايلي كان قد ترجّل من السيارة وفتح لها الباب. وشدّت يده على كوعها ليساعدها على الترجّل من السيارة والوقوف بثبات على الرصيف. لكنها قاومته عندما حاول ان يقودها نحو

البناية. عندما تفحصت عيناه الخضراوان ليا، تكلمت بصوت منخفض كي لا يسمعها مايك ادواردز:

«رايلي، ارجوك. يجب ان نتحدث».

امال رأسه الاسود، وقد تعمّد الغباء:

«نتحدث؟ عمّ تريدين ان نتحدث؟».

بلعت ريقها بصعوبة:

«عن الفتاة».

اجاب بخيلاء، وهدوء:

«ليا، لا ارى...».

وقاطعه صوت رنان مألوف لليا هاتفاً:

«ليا، ليا».

استدارت قليلاً نحو مصدر الصوت، فعلت ثغرها ابتسامة سعادة غامرة اذ رأت شاباً طويلاً نحيلاً رملي الشعر يندفع نحوها. وصرخت:

«لوني».

واختنق صوتها من فرط السعادة وهي تنادي شقيقها. فصرخت ثانية:

«لوني».

وتقدمت منه خطوة. ورأت خلفه عن بعيد والدها وقد ارتدى بزة السلاح الجوي الزرقاء ويجلس بجانب والدتها. ثم طوقت خصرها يدا لوني الذي رفعها معانقاً. وقبل ان يتأكد من صحة ما يرى دفن رأسه في شعرها الذي لونته الشمس وهو يردد:

«انك ما زلت بخير. انك ما زلت بخير. أليس كذلك؟».

اجابت ليا متهدجة:

«اجل، اجل، انني بخير».

واخيراً اوقفها على الارض ليحدق اليها. وامتلأت عيناه البنيتان بالدموع كالنساء. وقال بلهجة عززت الرباط المتين بينهما:

«أيتها الطفلة الحمقاء. ما الذي فعلته؟».

انفجرت باكية:

«كنت قادمة لأفاجئك في عيد ميلادك».

«ليا يا حبيبتي».

ولدى سماع ألوين صوت امه، التي بكت من شدة فرحها، ارخى قبضته عن شقيقته لتتمكن من رؤية والديها.

وما لبثت والدتها ان ضمتها. فطوقت ليا والدها بذراعيها وهي تشعر بالفرح والطمأنينة يغمرانها. وكررت امها هامسة:

«يا حبيبتي، يا حبيبتي، قلقنا عليك كثيراً حتى حسبوك في عداد الموتى، كنا. . .».

«انا بخير يا اماه».

والتفت ليا لتحتضن بيديها لتلف خصر والدها الذي انتصب بجانبها وهو لا يستطيع التعبير عن سعادته ونشوته. ومرغت وجهها بأزرار بزته فيما راح يربت شعرها بيده:

«لقد خفنا عليك كثيراً يا بنيتي».

همست ليا:

«اعرف يا ابي».

رفعت رأسها الى الوراء لتنظر وجهه. فلمحت في عينيه اشراقة حب عظيم لم يسبق التعبير عنه بالكلام. وبعد ان مسحت والدة ليا الدموع من عينيها، حاولت ان تمسح دموع ابنتها:

«يا الهي. كيف اصبحت؟ اكاد اقول ان هذا طيفك يا ليا. فثيابك ممزقة ولا بد ان وزنك قد نقص بضعة كيلوغرامات. وانت تبدين سمراء كالهنود».

ابتعدت ليا عن والديها لتنظر خلفها بجنون. لم تجد رابلي قرب السيارة حيث تركته. فتملكها الخوف. ثم لمحته على مقربة من مدخل البناية. ولحقت به بعد ان تحررت من عناق والديها متجاهلة ارتباكهما.

«رابلي».

واسرعت نحوه وهي تنادي ثانية:

«رابلي».

ولاحظت انقباض عضلات كتفيه وهو يتردد ثم يقف. واستدار في مكانه مرغماً وقد بدت عليه علامات الانزعاج. وادركت رغبته بان يتسلل بدون ان يلاحظه احد فيما اجتمع شمل الاسرة. وصاحت:

«لا تتركني يا رابلي. . .».

وحاولت ان تخفي كبرياءها:

«اود ان تتعرف على اسرتي».

اجتاز رابلي المسافة التي تفصله عنهم بخطوات عريضة تنم عن رغبة شديدة في إنهاء هذا الوضع. لا بدّ ان ملامح هذا التمثال الجامد قد قدّت من صوان، وان عينيه لا تعكسان احاسيس البشر. لقد بدا نبيلاً ومتعجرفاً وخالياً من الشعور. وخشيت ليا ان تصيب حجراً مثله ان هي لمسته. فعرّفته باسرتها سريعاً. فيما تجمد قلبها امام بسمته المهذبة ومعاملته الجافة. وقالت بتشنج:

«هذا هو رابلي سميث الذي تقاسمت معه اجرة الطائرة».

واضافت بارتباك وعصبية:

«لولاه لما كنت هنا».

ثم تبادلوا معه بضع مجاملات قبل ان يتراجع معتذراً:

«تشرفت بمعرفتكم جميعاً. ولكن، ارجو ان تعذروني لان لدي عملاً انجزه، خصوصاً انكم ترغبون بالانفراد بابنتكم».

وعندما هم بالانصراف، امسكته ليا بذراعه:

«الى اين تذهب؟».

تطلّع رابلي الى يدها الممسكة بذراعه. ثم حوّل نظره الى وجهها الممتقع:

«الى مكتب مدير الشرطة لاقدم له تقريراً عن تحطم الطائرة».

لم ترد ان يغيب عنها مخافة ان لا تراه ثانية:

«يجب ان اذهب معك».

اصرّ على رفضه:

«اني واثق من قدرتي على اجابة كل الاسئلة. واذا اراد مدير الشرطة ان يتأكد من روايتي، يمكنه ان يسألك. يجب ان تأخذي قسطك من الراحة. انت الآن متعبة للغاية ولا تملكين القدرة على التفكير السليم».

فهمت ليا معنى كلامه... لقد خيّل اليها انها تحبه. فعضت على شفتها السفلى لتخفي ارتعاشها. والحب والغصة تخنق كلماتها:

«لا ادري».

وطوّقت خصره بذراعيها ثم علقت به وهي تدفع رأسها في صدره لتسمع خفقات قلبه وتتأكد انه لم يصنع من حجر. وطرحت كبرياءها جانبا وهمست بصوت لا يكاد يسمعه سواه:

«متى يمكنني ان اراك؟».

ارتعشت يداه فوق كتفيها في لحظة انفعال. ثم انزلها بثبات ليمسك بذراعيها ويدفعها بعيداً عنه. ودمعت عيناها وهي ترى قسوته عليها وعدم اكتراثه بها. وامتعضت حين قال لها وهو يتصنع الابتسام:

«اذهبي مع والديك يا ليا. وتناولي بعض الطعام. ثم نامي قليلا. وستمضي ذات يوم معاً، ونسخر من محنتنا».

وتردد قليلا وهو يلتفت الى والديها قبل ان يفلتها ويمضي في سبيله. ورؤيته يبتعد عنها بسهولة جعلتها تحسّ ألماً شديداً تمنت معه لو انها ماتت. ثم استعادت توازنها. واستدارت نحو افراد اسرتها ناظرة اولا الى لولي.

دقق شقيقها النظر الى قميص رايلي الذي لم تفصله عن جسمها اي ملابس داخلية. والتقت عيناه بعينيها قبل ان يحولا ابصارهما الى والدهما. وتابعت نظراته الفاحصة رايلي وهو يدخل البناية.

عرفت ليا افكارهم. لقد اتضح لهم الآن ان ابنتهما امضت احد عشر يوماً في صحبة رجل غريب، وحيدين. فلعلهم يتساءلون...

وطوّقت ذراع لولي كتفيها. ثم شدها اليه:

«لنذهب بها الى الفندق حيث تستحم».

وابتسم لوالديه وهو يتأمل عيني والده:

«وبعد ذلك يمكننا ان نتناول الطعام خصوصاً ان مدين لليا بعشاء عيد ميلادي».

١٠ - المواجهة الأخيرة

دفعت يد شعرها خلف اذنها برقة، ثم استقرت على وجنتها بلطف. وسمعت صوت رجل:

«افيقي يا ليا».

تحركت جفونها دون ان تنفتح فيما مرت وجنتها بيد الرجل. وهمست مبتسمة:

«هل قلت لك اني احبك؟».

رد ساخراً:

«لم تقولي ذلك اخيراً».

«احبك يا رايلي سميث».

«افيقي يا ليا، انك تحلمين».

فتحت عينيها مذهولة. ومع شدة ارتباكها ادركت انها لم تكن نائمة بين ذراعي رايلي. فقد رقدت في السرير واستندت رأسها الى مخدة بدلاً ان تسنده الى كتف رايلي. ووقف شقيقها لوي بجانب السرير عاقداً جبينه بينما كانت يداه في جيبه. وخجلت عندما اكتشفت انها ظنت خطأً شقيقها رايلي سميث. وتوقعت الاستنتاج الذي طلع به لوي من عبارتها. ثم انقلبت على ظهرها وقد ادارت رأسها نحو النافذة والستائر الكثيفة المسدلة عليها لتمنع دخول الشمس. وقالت وهي تتجاهل ما افصحت عنه:

«حان وقت العشاء».

قال ببعض المرارة:

«العشاء؟ لم تأكلي منذ حوالى ست وثلاثين ساعة».

«حقاً؟».

وحاولت ليا الجلوس. لكنها تذكرت انها لم تكن ترتدي ملابس،

فشدت ذراعيها على الغطاء قبل ان تجلس. وخيل اليها انه لم تمر غير ساعات قليلة على طلب امها اليها ان تستريح بعد ان تستحم. وعبثت بشعرها بعصبية:

«كان من المفترض ان تذهب امي لتشتري لي بعض الملابس».

اومأ برأسه سريعاً الى الكرسي:

«ها هي الملابس على الكرسي. اما الآن، فسأذهب الى الغرفة المجاورة حيث تجلس والدتي فيما ترتدين ملابسك».

ثم وقف عند الباب قابضاً على مسكته وهو يتردد:

«ليا...».

«اجل؟».

هز رأسه بعصبية:

«لا عليك، سألتقي بك هناك».

تمنت ليا لو طرح عليها السؤال الاكثر الحاحاً في ذهنه لانه كان بذلك سيخفف من التوتر الفاضح، الذي برز بينها. وحاولت ان تبدو مرحة منشرحة الاسارير كما يرغب والداها في رؤيتها اثناء الفطور. غير انها عاشت فترات صمت وكآبة وهي تفكر برايلي ومكانه وعمله واحتمال لقائها.

وبعض ذلك يعود الى الحديث الذي جرى في جناح والديها اللذين رغبا في تلقي وصف دقيق عن حادث الطائرة وعما فعلت خلال الأحد عشر يوماً التي تلت الحادث.

كان طبيعياً ان لا تروي ليا الاحداث دون ان تركز على الدور العظيم الذي لعبه رايلي في انقاذها. وكلما كررت اسمه، فكرت به اكثر. وما كان عليها الا ان تغمض عينيها لترى صورته المرتسمة في ذهنها وتتذكر كيف نامت بين ذراعيه. وقال والدها:

«ربما كان علينا ان نصطحبك الى الطبيب بعد الظهر».

اجابت بغضب قبل ان تخبر خجلاً وندامة امام نظرة شقيقها الموبخة:

«ماذا؟».

عبس والدها وهو يحدق النظر اليها:

«للتأكد ان جرحك قد شفي بطريقة سليمة وان لا خطر من التهابات».

ولم تتذكر ليا ان تلمس الضمادة على ذراعها اليسرى الا قبل بضع دقائق من اطلاعها والديها على ما اصابها من حرج. وهمست:

«انه بخير، ولا سبب لزيارة الطبيب».

وابتعدت عن نافذة الغرفة فيما ضحكت امها دون ان تنتبه للتشنج الذي اصاب ابنتها:

«صحيح يا حبيبتي؟ لا يمكنني الا ان اندهش لعدم اصابتك بالتهابات في رئتيك نتيجة برد الليل القارس في هذه المنطقة».

ذعرت ليا مع ان امها لم تبد ملاحظتها لتكتشف نوع العلاقة التي شدتها الى رايلي. وادركت ليا انها حاذرت التعليق بشيء قد يكشف عن مشاعرها. وشعرت بالذنب دون سبب سوى قلة صراحتها هي التي تعودت الا تخفي شيئاً عن والديها. ثم رفعت ذقنها تعبيراً عن التحدي:

«السبب يا امي بسيط. فانا ورايلي نما جنباً الى جنب طلباً للدفء».

ثم ساد الصمت للحظة شحنت بالترقب وقالت ليا وهي تمد يدها بعصبية الى علبة السجائر الموضوعة على طاولة الزينة:

«لم اقصد ما فهمتم. فرايلي لم يجامعني».

ترددت امها وهي تبحث عن الكلمات المناسبة:

«ليا. . . بصدق اقول لك اننا لم نفكر بمثل هذه الأمور».

اطبقت ليا شفتيها. واشعلت السيكارة:

«اعرف. ولكن. . .».

اكمل والدها الجملة وهو يضع يديه خلف ظهره وينظر من النافذة:

«ولكن، هذا ما تفكرين انت به».

«انا احبه، يا ابي».

«آه. فهمت. ولكن، ما هو شعور السيد سميث؟».

«لست ادري. ولكن، هو. . . انه. . . انه لم يأت. اليس كذلك؟».

«كلا».

ثم سألتها امها بلطف:

«هل متأكدة مما تقولين؟ ربما كان شعورك هو العرفان بالجميل. فكل تسعة مرضى من اصل عشرة يقعون في حب اطبائهم».

هزت ليا رأسها الذي لونته الشمس وضحكت بحزن:

«كلا. ليس ما اشعر تجاه رايلي عرفاناً بالجميل».

استدار والدها عن النافذة وقد نفذت نظرته الثاقبة اليها. وقال بغضب:

«انك بالكاد تعرفين الرجل يا ليا».

«لا اوافق على هذا الرأي. فانا ورايلي عشنا في الصحراء مدة احد عشر يوماً تعرضنا في ظروف قاسية تظهر اي انسان على حقيقته».

اصبح الحديث عن رايلي مزعجاً لأن ليا لم تعرف كم تستطيع ان تحافظ على رباطة جأشها خصوصاً ان الشكوك في مدى حبه لها قد بدأت تتضح وتظهر.

ثم مررت يدها على خصر ثوبها القطني الصيفي:

«اذا سمحتم، سأعود الى غرفتي واستريح قليلاً».

ولم تفاجأ لما لم يحاول والداها احتجازها فترة اطول. وتوقعت ان يناقشوا الأمر فيما بينهم، خصوصاً انه تبين لهم ان ابنتهم وقعت في حب رجل غريب عنهم كلياً.

اتكأت ليا على باب الغرفة الذي اوصدته وراءها، وحاولت تقويم الوضع بمنظارها. ولكن، سرعان ما قطع قرع الباب حبل افكارها. وسألت بعصبية لأنها ارادت البقاء وحدها:

«من هناك؟».

«انا لوي. هل يمكنني الدخول؟».

«بالطبع».

ورفعت مزلاج الباب لتفتحه وهي تتنهد، ودخل لوي، ورمقها بنظرة تتفحص تعابير وجهها المضطرب. وسألت بعدم اكتراث:

«ماذا تريد؟».

«اعطتني الشركة اجازة اثناء غيابك. وبما انك عدت على ان تستأنف العمل. اما والدي فقد اعد الترتيبات لسفركم انتم الثلاثة الى لاس فيغاس. ومن هناك ينطلق بمفرده الى الاسكا حيث نلتحق به والدي بعد بضعة اسابيع».

لم تعلق ليا الا احست ان شقيقها يرمي ان يتحدث عن موضوع لم تعرفه. ثم اضاف بتبسطه المعتاد:

«والحقيقة ان الصحف اسهبت في الحديث عن رايلي سميث صديقك وحبيبك. فهو معروف جداً في ميدان اختصاصه».

اجابت ليا وهي تنظر الى يديها وقد عقدتهما امام وجهها، والى اصابعها التي تحركت بعصبية:

«ليس رايلي سميث صديقي وحبيبي».

سأل لوي وهو يريد التأكد من حبها له:

«ولكن، الا تريدين ان يكون كذلك؟».

ردت ليا وهي تضحك بمرارة:

«احبه يا لوي. احبه اكثر مما تحب اي امرأة رجلاً. وهذا يرعبني».

«لماذا تقولين هذا؟».

مشت بعصبية الى مرآة طاولة الزينة حيث وقفت لتنظر الى طيف اخيها الشديد الانتباه:

«لانه قال تقريباً الشيء نفسه الذي قاله والدي، ولكن بطريقة مختلفة. لقد قال ان الوقت الذي قضيناه معاً سيبدو كحلم بعد عودتنا

الى المدينة. وهو يقصد بذلك انني سأنساه بعد ان ارجع الى اهلي والعالم الحقيقي».

علق لوي:

«لكنك لم تفعلي».

«كلا، لوي، هل تعرف اين يقيم؟».

«تريدين الذهاب اليه. اليس كذلك؟».

اومأت برأسها ايجاباً. واضافت:

«لا اعرف اين يقيم. ولكن ليس من الصعب العثور عليه في مدينة بحجم تورونتو. دعني اولاً اجري بعض المخابرات والاتصالات الهاتفية».

وبما عرف لوي اين يقيم رايلي، طلبت ليا منه ان يأخذها الى الفندق الذي نزل فيه لأنها قررت القيام بمحاولة اخيرة لرؤيته قبل ان تقتنع بعدم حبه لها.

عندما ترجلا من السيارة وانطلقا الى مدخل الفندق، قالت ليا لشقيقها:

«لا داعي لان تصطحبني يا لوي».

تشبك ذراعيها وقال مبتسماً:

«لم يكن هنا عندما اتصلت به، ولعله لم يعد، سأذهب معك وارى».

فرفعت ذقنها بتصميم:

«اذا لم يكن رايلي موجوداً فسأنتظر حتى يعود. لن اغادر قبل ان اراه».

ثم طلب اليها لوي ان تنتظر عند مدخل الفندق حتى يذهب ويسأل عنه. وبعد بضع دقائق عاد ليمسك بكوعها ويقودها عبر ممر تحيط به غرف عديدة:

«تعالي».

«هل هو هنا؟».

ابرز لوي مفتاحاً:

«كلا، ولكن بامكانك ان تنتظريه في الغرفة».

«كيف حصلت على هذا؟».

«رشوت الشخص المناسب لأنه ليس بامكاني السماح لشقيقتي بانتظار رجل في قاعة الانتظار في فندق».

ثم شد على يدها فيما اغرورقت عيناها بالدموع واشتدت الغصة في حلقها حتى استحال عليها ان تشكره. ونظر لوي الى الارقام المطبوعة على ابواب الغرفة. ثم فتح باباً وهو يقول:

«هذه هي غرفته. اتمنى لك حظاً سعيداً. اذا لم يقتنع بكلامك اتصلي بي وسأحضر لتحدث اليه».

عانقته ليا وهي تهمس:

«ماذا يمكنني ان افعل بدونك؟».

«يمكنك ان تفعلي كل شيء بدوني. ولكن اذا كنت تحبين هذا الرجل قدر ما تقولين فلا يمكنك ان تفعلي شيئاً بدونه. اسعي كل قدرتك للحصول عليه».

بقيت ليا وحدها في الغرفة بعد ان غاب لوي:

لم تكن في الغرفة ساعة. ولم تعرف كم عليها ان تنتظر عودة رايلي. وخيل اليها ان ساعات وساعات مرت فيما اخذت تتهادى من السرير الى الكرسي الوحيد الى النافذة والى السرير، وفكرت بمناظرات عدة القتها على نفسها تكراراً.

الا انها نسيت كل ما فكرت به عندما سمعت مفتاحاً في قفل الباب. وفيما فتح رايلي الباب تجمدت بجانب الكرسي. فلم يرها وهو يغلق الباب ويلقي بزته على السرير مما اعطاها ثواني لتتأمل ملامحه المتعبة.

وبينما كان يفك ازرار قميصه العليا لمحها، فتوقف عن عمله وحدق اليها. لقد تأملت ليا ان تفاجئه وتتمكن بالتالي من مشاهدة علامة فرح في وجهه لدى رؤيته لها. الا ان ظنها خاب.

«ماذا تفعلين هنا يا ليا؟».

جف حلقها، واحست ان آمالها تحطمت فجأة. لكنها بللت شفتيها:

«جئت اراك واتحدث معك. لقد انتظرتك ساعات، فأين كنت؟».

تنفس رايلي عميقاً:

«كان علي ان ازور مدير الشرطة مكان الحادث. وانتظرت حتى انتشلوا جثة غرادي من تحت الحطام. ثم عدت للاتصال بأسرته ووضع الترتيبات لارسال جثمانه الى لاس فيغاس لاجراء مراسم الدفن. واعتقد ان احد رجال الشرطة قام بايصال امتعتك».

تمتمت ليا اي حديث عن تعاطفها مع اسرة غرادي وحزنها لوفاته لأنها لم ترد اعطاء رايلي فرصة لتجنب الموضوع الذي اتت من اجله. وقالت:

«كان بامكانك ان تحضر انت امتعتي، فلماذا لم تفعل؟».

اجاب بصراحة متناهية وهو يمرر يده بتعب على خده وذقنه:

«لا اريد ان اراك. واريد ان تصغي الي. فأنا متعب واشعر بالحر الشديد. واحتاج الى حمام وقليل من النوم. لماذا لا تقولين ما جئت تقوله وتخرجين؟».

اجابت ليا بدهشة:

«احبك يا رايلي».

تمتم بغضب:

«يا الهي. لقد تحدثنا في هذا الموضوع من قبل».

ابتسمت ليا بحزن:

«وسبق ان اعربت عن اعتقادك بأن شعوري نحوك سيتغير فور عودتي الى اهلي والعالم الحقيقي. لكن انظر حولك يا رايلي أترى انك مطلق بسقف وحائط بجدران وتعيش في غرفة تجري فيها المياه الباردة والساخنة ويحيط بها طريق عامة تسلكها السيارات والشاحنات،

هذا كله من صنع الانسان لا الارانب والحيوانات. ولكننا بقينا كما نحن. وبقيت احبك فوق ما احببت اي انسان لشعوري بالفراغ وانا لا استيقظ بين ذراعيك».

لفهما صمت غريب فيما التقت نظراتهما. وبدا وجهه الأنيق الخالي من التعبير اشبه بقناع لوحته شمس الصحراء وريحها. ثم استدار فجأة ليتجه بسرعة الى الطاولة ليصب بعض الثلج والماء في كوب بلاستيك وهو يتمتم:

«انت لا تعرفين ماذا تقولين».

تبعته ليا فيما حاولت خلع معطفها.

«قلت لك ذات مرة يا رايل انك اذا تركتني سأتبعك. وانا اعني ما اقول يا رايل. فاذا لم ترد ان تبقيني معك كزوجة، سأبقى معك بأي شكل».

«هل...؟».

لم يكمل رايل جملته فيما استدار فجأة ليرى ما تفعل ويصرخ:

«ماذا تفعلين؟»

ثم دفع بالكوب الى الطاولة، فانسكب بعض الماء على جوانبه واندفع بسرعة البرق الى السرير لينتزع غطاءه ويلفها به. وقابلت ليا نظرته الناقدة غضباً وهي تعيد كلمات اسمعها اياها ذات مرة:

«الجسم العاري جزء من الطبيعة. فلماذا اتخجل ان تراني بلا ملابس مرة ثانية؟».

اجاب رايل وهو يشد الغطاء حولها:

«الأوضاع تختلف الآن».

«وما هو وجه الاختلاف؟».

اجاب بصوت مفعم بالرغبة:

«لأني افكر كرجل ابيض لا كرجل هندي».

علقت ليا على عبارته بسؤال:

«انت تريدني اذن؟».

فعانقها بحرارة... ثم همس:

«انك تحتاجين مزيداً من الوقت».

«الوقت لن يغير من مقدار حبي لك ومقدار رغبتي في الحصول عليك».

«كيف اشرح لك الوضع؟ ليا، انا ان صادقتك لن اسمح لك بالابتعاد عني لاني احبك الى حد يجعلني ارغمك بالبقاء معي سواء شئت ام لم تشائي. وانا اعرف انك تحبيني».

ضحكت من فرط سعادتها العارمة:

«يا حبيبي يا رايل. انا لست مريضة تقع في هوى طبيبها، انا امرأة تقع في هوى رجل تحبه ولا تريد ان تبتعد عنه».

وفيما شدد قبضته عليها سألته لتحاول ان تعرف اذا كان يقول لها الحقيقة:

«اذا كنت تحبني، فلماذا لم ترد ان تراني؟»

«اقسم انه لو تكررت لقاءاتنا لما استطعت ان امنع نفسي من مغازلتك وانت لا تعرفين كم تعذبت لاني لم اغازلك وانا احبك كل هذا الحب».

ثم ارخى قبضته عنها وامسك بوجهها يتأمله فيما همس:

«ارجوك ارتدي ثوبك حتى نذهب الى والديك ونضع ترتيبات العرس».

تلألأت في عينيها دموع ماسية فيما همست وقد غمرتها السعادة:

«هل تريد ان تتزوجني؟».

نظر رايل في عينيها ثم قال وهو يعانقها:

«سأتزوجك قبل ان تصبحي صديقتي وخليلتي».

روايات رومانسية عالمية

عبير

زوجة الهندي

القدر

المكتوم محتوم ثابت كدوران

الارض . تحدث كوارث عظمى يموت فيها

الملايين وفجاة من خلال الانقاض يبرز طفل لم

يصب بخدش ، وكأن شيئا لم يكن. وعندما سقطت بهم

الطائرة، وقتل طيارها لم تتوقع ليا ان يكون رايلى

سميث، نصف الهندى، الذى يتمتع بسمعة غير واضحة ، هو

رفيقها فى الصحراء المترامية الاطراف. لكن هذا الهندى

برهن من خلال ايام الضياع ولياليه عن نبل وبساله وحكمه

اين منها هزال صديقها الامريكى.. هل تستطيع ليا ان

تقاوم حبها الصحراوى وتعود الى حياتها العادية بعد

تشرد القفار وجوعها وعطشها وبذلك تنقذ

نفسها من رايلى سميث الى الابد؟

مكتبة زهران

جمهورية مصر العربية - القاهرة

١٥ شارع الشيخ محمد عبده - خلف الجامع الأزهر

ت: [illegible] - موبايل [illegible]